الحسين

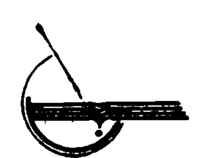
يولد من جديد

محطات في حياة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر

كمال السيد


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء ـ مؤسسة أنصاريان
ص . ب ١٨٧ ـ هاتف ٧٤١٧٤٤

اسم الكتاب	الحسين يولد من جديد
المؤلف	كمال السيّد
الناشر	مؤسسة أنصاريان
صفّ الحروف	افتخاري
المطبعة	الصدر ـ قم
سنة الطبع	١٤١٦هـ. ـ ١٩٩٦م
عدد المطبوع	٢٠٠٠

كمال السيد



يولد من جديد

محطات في حياة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر

ما هي الدنيا؟!....

مجموعة من الأوهام..

لكن دنيانا أكثر وهماً من

دنيا الآخرين.

الإمام الشهيد

الاهداء

الى شباب الاسلام في كل مكان

من اجل ان يبقى الصبر

رمزاً للجهاد

وطريقاً للحرية

الموت في حياتكم مقهورين

والحياة في موتكم قاهرين

الامام علي

يوم وُلد الحسين،

تدفّقت ينابيع الحبّ

والأمل والجمال.

ويوم مزّقت قلبه السهام،

ادرك الكون معنى الحرّية

في البدء

التقيتك مرّتين، مرّة قبل «صفر»، والأخرىٰ بعده... وكنتُ يومها في العشرين، وها أنا أطلّ علىٰ الأربعين.

ودار الزمن وطوّحت بي الأيّام وقد زلزلت الأرض زلزالها. والعراق الذي كان أرض الخصب والأمل والحياة ومرفأ الأئمة الأطهار، أضحىٰ أرض الجمر. كل شيء فيه يحترق. وبدت الأشياء عارية ومقرفة، وقد ذرّ الشيطان قرنيه يعربد ويدمّر، ويحيل الأشياء الخضراء رماداً تذروه الرياح. الآمال... الأماني... الحياة المطمئنة الآمنة.. كل شيء أضحىٰ هباءً منثوراً.

لن أكون قاسياً أو مجانباً للحقيقة لو قلت أنّ الأمّة في العراق قد ركعت للنمرود، وأن كل المذابح التي حدثت في العراق لا تمثّل إرادة

، وحالة شعب، وان الدماء التي لوّنت أرض الرافدين ما هـي الّا صرخة الضمير المثقل، ولو كانت الحقيقة غير ذلك ما بقيتَ وحيداً يا سيّدي؛ لم يبقَ إلىٰ جانبك أحد حتىٰ من أهل بيتك الّا آمـنة، وقـد تشرّبت «زينبَ»، بعدما رأت فيك ملامح الحسين. ولكـن الأوغـاد الّذين عضّوا أنامل الندم لأنّهم لم يقتلوا زينب يوم عـاشوراء، قـتلوا «آمنة» من أجل أن تبقىٰ ثورتك دون صوت.

أجل يا سيّدي. التقيتك مرّتين؛ مرّة قبل «صفر» وما أزال حتىٰ اليوم أحسّ دفء نظراتك الحانية. بريق عينيك يتألق فيهما الحسين، وكان هذا مصدر عـظمتك؛ فـالذين كـانوا يـحجّون اليك لم يـقرأوا «فلسفتنا» أو «اقتصادنا». لقد غرقوا في شواطـئ روحك العـظيمة وقلبك الكبير.

أجل يا سيّدي. التقيتك مرّتين؛ مرّة بعد «صفر» وما أزال أتذكّر دفء الكلمات وعـمق الحـروف، وأنت تـحتلّ زاويـة صـغيرة فـي مكتبتك؛ والذين جلسوا في حضرتك لم يـدركوا بـعد أنك سـتحتل التاريخ.

ما زلت اتذكّر ذلك المشهد المحفور في ذاكرتي، ما يزال وجهك المضيء ماثلاً أمامي رغم ضباب الايام وغبار السنين.

ما زلت أتذكّر سيل الاسئلة التي أعدّها طالب جامعي.. وكانت

أسئلة مصيرية حسّاسة يتهيّب الكثير الإصغاء إليها خوفاً وعجزاً، وكنت وحدَك الذي يصغي ويجيب دون عجز أو وجل...

سأل الطالب عن أوراق اليانصيب، وأنّ لها غايات سامية فلِم تحرّمها؟! فقلت: إن الغايات السامية تلزمها وسائل سامية.

وسأل الطالب عن اللحوم المستوردة فأجبت بحرمتها رغم «العيون الزجاجية».

وسأل الطالب مرّة أخرىٰ عن مجتمع الجامعة فقال: نحن يا سيّدي طلّاب وطالبات في الجامعة ونحن ملتزمون بالدين، فانبثق تعريف للمجتمع الإسلامي بأنه مجتمع مختلط ولكنه ملتزم فما هو رأيكم؟

وسكتَّ هنيهة يا سيّدي ثم انسابت كلماتك هادئة. ما زلتُ أتذكّرها بعد عشرين سنة.

فقلت يا سيّدي ما لا أنساه: إنّ الاسلام لا يقف موقفاً حدّياً من مسألة الاختلاط، ولكنه يأخذ بنظر الاعتبار عدم الاختلاط ما أمكن. إنّني أسجّل هذه للذكرىٰ فقط، لأنّي وعندما ودّعتك يا سيّدي تخطّفتني الكلاب. اقتادوني الىٰ أقبية التعذيب في بغداد. سألوني عنك. إنّهم يخشونك.... يخشون بريق نظراتك لأنّها ترنو الىٰ المستقبل. يخشون قلبك لأنه قنبلة موقوتة ربما تنفجر في أية لحظة

فتحيل قصورهم وعروشهم هباءً منثوراً.

عذّبوني يا سيّدي لأنّي التقيتك مرّتين. سألوني من أقلّد، فقلت غيرك، ولو قلت أقلّد الصدر لقتلوني.

العالَم يا سيّدي لن يصدّق محنتك.. لن يـصدّق الأهـوال التـي مرّت علىٰ عينيك، ولهذا ستبقىٰ مجهولاً، فالجيل الذي سيدرك سرّك ما يزال في رحم الايام. عذراً يا سيّدي، أنا لا أريد أن أؤرخ لك.. أنا أؤرخ لنـفسي، فـالتاريخ يـخصّ المـوتىٰ، امـا انت فـقد التـحقت بالقافلة... قافلة الحسين؛ والذين انطلقوا مع الحسين لن يـموتوا... لقد حطّموا قضبانِ الزمن الصدئة، واكتشفوا سرّ الخلود.

كمال السيّد

الجذور

غصن في شجرة معطاء أصلها ثابت وفرعها في السماء تـؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.

جدّه الحسين، والدماء القـانية التـي لوّنت الأرض فـي لحـظة عاشوراء تسري في عروقه؛ وللحسين سرّ في أعماق الصـدر غـير فصيلة الدم ولكنها الثورة الكامنة فيه، وفي ذلك التـصميم المـلحمي علىٰ الشهادة.. علىٰ الموت من أجل الحياة.. من أجل الخلود.

هو غصن من شجرة سماوية، والذين دقّقوا في حنايا التاريخ.. في زواياه المظلمة لابدّ أن تستوقفهم شمعة تتوهج؛ فعلىٰ شواطـئ المتوسط من أرض تركيا وفي سنة ٩٦٥ هـ. سقط أحد أجداده صريعاً مضمخاً بالدماء، فقد اغتالته اليد السوداء علىٰ نـحو مـؤسف[١] دون

---

(١) الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي، استدعي الىٰ اسطنبول في عهد سـليمان =

ذنب سوىٰ الرأي والفكر والعقيدة.

هذه جذور الصدر.. بعيدة الغور.. شجرة معمّره تقاوم عواصف التاريخ ورياح الزمن.

الميلاد

في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ١٣٥٣ هـ. أطلّ الوليد المبارك علىٰ الدنيا في «الكاظمين» علىٰ شواطئ دجلة، عندما يخترق النهر بغداد.

ويمرّ عامان ونصف فيسدّد القدر أولىٰ ضرباته القاسية.

كانت سنة ١٣٥٦ هـ. علامة محفورة في ذاكرة الصبي، فقد ابتسم لأنّه رأىٰ إلىٰ جانبه أختاً سترافقه الدرب حتىٰ النهاية.

أجل مرّ عامان ونصف، فابتسم الصبي لحظة، ليحزن الدهر كلّه.

فجأة يختطف الموت أباه العظيم. غابت الشمس، فالدنيا برد وصقيع... لقد انهدّ العمود فتهاوت الخيمة خاويةً علىٰ عروشها.

= القانوني وتمّت تصفيته علىٰ شواطئ البحر قريباً من العاصمة علىٰ نحو مأساوي يدعو للتساؤل حول الاسباب التي دفعت العثمانيين الىٰ التخلّص منه. ويمكن الاشارة الىٰ شخصية الشهيد الفذّة والتي تدين بالولاء لأهل البيت (ع) وفي هذا ما يهدّد الخلافة العثمانية التي تستند في شرعيتها الىٰ قاعدة مذهبية مخالفة.

وأصعب ليلة في الدهر ليلة يتيم ينتظر عودة أبيه فلا يعود. ها هي الأسرة الصغيرة تمضي الليل دون طعام.. دون عشاء. وتعلّم الصبي أوّل دروس الحياة... فالحياة مدرسة تعلّم المرء كل شيء. يكفي أن تفتح عينيك.. أن ترهف سمعك لترىٰ الأشياء علىٰ حقيقتها.

تعلم الصبي الطهر أوّل ما تعلم من دروس الحياة... تعلم أن يكون نظيفاً طاهراً كقطرة الندىٰ تتألق في ضوء الشمس. وأصعب شيء علىٰ الفقير أن يبقىٰ نظيفاً كأني به يقول: إذا كان ثوبك وحيداً فلا ينبغي أن يكون قذراً.. إن نظافة الثوب الوحيد من أنبل جهاد الفقراء. فإذا كُتب عليك أن تكون فقيراً فحاول أن تكون شريفاً.

وتعلم الصبي الصبر حتىٰ تعوّد مذاق الحنظل. تعلّم الطهر والصبر وعلّمهما.. علّم «آمنة» درسين من دروس الحياة.. وكانت أخته رمزاً للطهر ومثالاً في الصبر.. كانت زينبَ هذا العصر المتوحش.

الخطوات الأولىٰ

وتمرّ الأيام ويتدفّق نهر الزمن؛ تتدافع أمواجه غير آبهٍ بهذا أو بذاك. وباقر الصدر الآن في الصفّ الثالث الابتدائي في مدرسة منتدىٰ النشر ينطلق كل يوم الىٰ مدرسته ينهل العلم والمعرفة ويتشرّب ثقافة

عصره... والتاريخ في غفلةٍ عن تلك اللحظات.. عن تـلك الحـقبة الحافلة التي صقلت عـبقريةً كـامنة فـي الأعـماق. حـتىٰ إذا دوّت عبقريته عاد التاريخ القهقرىٰ يبحث هنا وهناك عن البدايات.. عـن البذرة والموسم والحصاد.. يضيء شمعةً هنا ويسرج قنديلاً هناك.

والتاريخ ذاكرة الجنس البشري.. ذاكرة شيخ غارق في السنين والحوادث، وأنّىٰ له الالتفات إلىٰ صبي صـغير فـي سـيمائه مـلامح النبوّات وعنفوان الرسالات.

باقر الصدر في الصف الثـالث، يـنطلق كـل يـوم الىٰ مـدرسته «منتدىٰ النشر» ليكون أوّل الداخلين. يلج الصف كأنه يلج معبداً.. وينظر الىٰ معلّمه بخشوع المريدين.

كان مثالاً في أدبه وفطنته وذكائه.. بذرة تنطوي على سرّ شجرة معطاء وعقل يكتنف سرّ عبقرية سيكون لها شأن، وأي شأن.

وها هو التاريخ يعود القهقرىٰ.. الىٰ الوراء، ربّما أربعين سنة أو تزيد. لنرىٰ كيف يضغط علىٰ جبينه.. يعتصر ذاكرته ليضيء شـمعة تلقي ولو بصيصاً من الضوء علىٰ طفولة تـحمل جـذوة مـن اسـرار الرسالات.

أرهِف سمعك إلىٰ زميل له في المدرسة[1] وهو يـلملم خـيوط زمن بعيد علّه يفلح في نسج مشهدٍ من تلك الطفولة المشرقة.

«جمعتني وإيّاه مدرسة واحدة.. كان حينها في الصف الثـالث الابتدائي.. أما أنا فكنت في السنة النهائية من هذه المرحلة الدراسية.

وطبيعي أن لا يكون بيننا اتصال مباشر.. ومع كل ذلك فقد لفت انتباه الجميع، وكان محطّ أنظار التلاميذ صـغاراً وكـباراً. كـما كـان موضع احترام معلّميه. كانت له شخصية تفرض وجـودها، وسـلوك يحمل المرء علىٰ احترامه.

كنا نعرف عنه أنه مفرط في الذكاء، متقدّم في دروسه تقدّماً ندر نظيره.. يبزّ فيه زملاءه كثيراً. وما طرق أسماعنا أن هناك تلميذاً في المدارس الاخرىٰ يبلغ بعض ما يبلغه من فطنة وذكاء، لهذا اتـخذه معلموه نموذجاً للطالب المجدّ والمؤدّب والمطيع.

وكان بعض التلاميذ يتأثرون به إلىٰ الحدّ الذي يجعلهم يقلّدونه في المشي والحديث والجلوس في الصف، علّهم يظفرون ولو بجزء يسير من الإعجاب والاحترام. وله فـي تـواضـعه الجـمّ هـيبة فـي النفوس. فلم يكن أحد ليبدأه الحديث الاّ اذا شعر المتحدث برغبته

---

(١) محمد علي الخليلي.

في الحديث أو يكون هو البادئ.

انّ في اعماق هذا الصبي قبس من روح النبوّات في ذلك التواضع السماوي الذي يزيد المرء هيبة في النفوس ومنزلة في القلوب.

كان عطوفاً علىٰ من هو أصغر منه، ومؤدّباً أمام من يكبره سنّاً ـ كانت له في المدرسة زاوية ينفرد بها حتىٰ أضحت مكاناً له لا يجسر أحد علىٰ الاقتراب منها.. فاذا انفرد تحلّق حوله زملاؤه، ويتحول التلميذ الصغير الىٰ معلّم كبير.. معلّم له سحره في النفوس وتأثيره في الأرواح...

فلو اقتربت من تلك الحلقة العجيبة لوجدت ذلك الصغير الكبير يتحدث عن أشياء عجيبة لا يطرقها إلا الكبار.. وها هو ابن التاسعة يتحدث عن الماركسية، والامبريالية والديالكتيك.. ويتطرق في حديثه عن عباقرةٍ غابرين «فكتور هيجو» أو «جوته» وغيرهما من عمالقة التاريخ الانساني، ولم يخطر علىٰ بال الذين كانوا يصغون اليه، ولعلّه هو أيضاً، لم يفكر أنه سيكون قمّة شامخة أين منها «هيجو» و«جوته» وكل عمالقة العصر الحديث.

ها هو التاريخ يجود، فيشعل شمعة يعتصر ذاكرته فلا تسعفه الاّ بومضات أشبه ببروق سماوية تشتعل وتنطفئ امام عبقرية مبكرة

وإرادة ستغير في مسار التاريخ ليكون هو بدايةً لمنعطف حادّ في المسار الخالد».

أرهِف سمعك مرة أخرىٰ واصغِ إلىٰ ما يقوله معلم له شهد تفتّح تلك الشخصية علىٰ الحياة والفكر والدنيا:

«كان طفلاً يحمل أحلام الرجال، ويتحلّىٰ بوقار الشيوخ. وجدتُ فيه نبوغاً عجيباً وذكاء مفرطاً، وكان كلّ ما يدرّس في هذه المدرسة من كافّة العلوم دون مستواه العقلي والفكري.

كان شغوفاً بالقراءة.. لا تقع عيناه علىٰ كتاب إلّا وقرأه وفقِه محتواه، وما طرق سمعه اسمُ كتاب في أدب أو علم أو اقتصاد أو تاريخ الا وسعىٰ إلىٰ طلبه».

جاء يوماً إلىٰ أحد معلميه، وقد اجتاحته رغبة عارمة في سبر غور الماركسية يقرأ نظرياتها ونظرتها للانسان والطبيعة والكون. ويتردد المعلّم، يخشىٰ علىٰ هذا الصبي من مزالقها ان تهوي به الىٰ الحضيض والقرار، وبعد إلحاحٍ وإصرارٍ وجد المعلم نفسه امام إرادة عجيبة، فراح يهيّئ له كتباً ومجلّات كانت في تلك الحقبة مثل الكبريت الأحمر.

وراح الصبي يغوص في الحجج العميقة ويطلب المزيد، وظنّ المعلم بعد أن جلب له أمهات الكتب التي تشرح نظرياتها أنّ هذا

الصبي سوف يقف أمامها حائراً لا يفقه منها شيئاً، فهو نـفسه وقـف عاجزاً عن فهْم دقائقها. وإذا بالصبي يعيد له الكتب بعد أسبوع، ولعلّ المعلّم قد ظنّ للوهلة الأولىٰ أن الصبي قد اصطدم بـجدار صـخريّ أصمّ. فأعاد الكتب فإذا به قد أحاط بها علماً وراح يشرح ما خفِي علىٰ معلّمه منها. ووقف المعلّم ـ ربّما لأول مرّة ـ امامه مذهولاً يتأمّل المعجزة مبهوراً.

كان معلموه يتوجّسون خشية أن يقتله الذكاء المفرط.

وكان يؤمّ التلاميذ في الصلاة خاشعاً لله خشوعَ الزاهدين الذين عافوا الحياة ونبذوا الدنيا، وربما اعتلى المنصّة خطيباً تنساب كلماته مؤثرة في فصاحة ورصانة.

قال له معلّمه يوماً وقد بهرته عبقرية مبكرة: سيأتي اليوم الذي ننهل فيه من علمك ونهتدي بأفكارك وآرائك.

فأجاب الصبي العظيم وقد اصطبغت وجنتاه بحمرة تنمّ عن أدب وحياء عظيمين: عفواً أستاذ، فأنا لا أزال وسأبقىٰ تلميذكم وتلميذ كل من أدّبني وعلّمني في هذه المدرسة، وسأبقىٰ تلميذكم المدين اليكم بتعليمي وتثقيفي.

وكان الىٰ جانب دراسته في المدارس العصرية قد طوىٰ شوطاً مهماً في دراسة العلوم الدينية في مناهجها السائدة يـومذاك، وربّـما

تغيب عن الحضور في مدرسته في بعض الأيام لاشتغاله في تحصيل العلم والمعرفة.

وكان أستاذه الأوّل أخوه إسماعيل الصدر الذي شهد تفتّح نبوغه وبداية انطلاقته.

فقد درس وهو في الحادية عشرة من عمره علم المنطق وسبر غوره، حتىٰ ألّف رسالة سجّل فيها بعض اعتراضاته في مسائل منطقية. ودرس في الثانية عشرة من عمره علم الأصول لدىٰ أخيه، وكان يعترض علىٰ بعض ما يرد في كتاب (معالم الاصول) وهي اعتراضات لم يكن يكتشفها سوىٰ علماء لهم وزنهم وعمقهم.

الهجرة الىٰ النجف

تبقىٰ الهجرة في التاريخ الانساني واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالانسان منذ ظهوره، وهي العامل الاساس والمؤثر في انتشار الجنس البشري، بل وفي قيام حضارات ودول، كما هو الحال في انطلاق حضارة الاسلام إثر هجرة النبي من مكة الىٰ يثرب حيث بدأ التاريخ الاسلامي الذي اتسم بميسم الهجرة.

وتبقىٰ البواعث الاقتصادية والقهر السياسي والاجتماعي وراء

اغلب الهجرات في التاريخ، اضافة الىٰ الهجرات القسرية، وهي في الحقيقة لا تمتلك مقومات الهجرة بل هي في واقع الحال لصوصية علىٰ نطاق واسع. ولعلّ مصداقها الوحيد ما قام به الغرب من عمليات الخطف في افريقيا لملايين البشر في واحدة من أبشع الحوادث في التاريخ البشري.

وهناك في تاريخ الشيعة ظاهرة تستحق التأمل، منذ سقوط بغداد في ايدي السلاجقة ونشوء المدن العلمية إثر هجرة فردية أو جماعية.

ومنذ ذلك الوقت وحتىٰ اليوم نشاهد بوضوح أن الهجرة لطلب العلم هي وراء تمدّد تلك المدن وتجذّر الحالة العلمية فيها، وهي ايضاً وراء نبوغ معظم عباقرة الفكر الشيعي. ولقد كانت هجرتهم خالصةً لله ولدينه متحمّلين مشاقّ الغربة وشظف العيش، لا لشيء إلا استجابة لنداء يضجّ في الاعماق.

في عام ١٣٦٥ هـ. غادر محمد باقر الصدر مدينة الكاظمية الىٰ النجف الاشرف وتتلمذ لدىٰ علَمين من علمائها وهما:

- السيّد أبو القاسم الخوئي.
- الشيخ محمّد رضا آل ياسين.

امتدت فترة دراسته في النجف مدّة سبع عشرة سنة، وهذه المدّة وان

بدت قصيرة نسبياً ولكن المهاجر الذي يتوقد ذكاء وعبقرية كان يستثمر من يومه ست عشرة ساعة في الدراسة والبحث والتحقيق.

واذا كان التقليد للأعلم هو قدر كل المنتسبين للمذهب الامامي سواء العلماء منهم والبسطاء، فان محمد باقر الصدر هو الاستثناء الوحيد، فهو لم يقلّد أحداً من العالمين، وإذا كان قد قلّد آل ياسين فقد كان ذلك في صباه إذ لم يصل سنّ البلوغ بعد.

ورحلته العلمية لم تكن اجتراراً للعلوم ولا تراكماً للمعرفة والثقافة بقدر ما كانت تفاعلاً كيميائياً موظِّفاً العناصر الخام لميلاد شيء جديد لا ينتمي إلىٰ ما سبقه الا في الجذور فقط.

كانت رحلته مع العلم ابداعاً واكتشافاً، وكان يفجّر ينابيع المعرفة تفجيراً فتسيل أودية بقدر.

سنوات العطاء

كان "فدك في التاريخ" باكورة أعماله التي فاجأ بها عصره، وكان عمره يومذاك سبعة عشر عاماً. علىٰ أن المقدمة تشير الىٰ اقلّ من هذا العمر بكثير. وقد يتساءل المرء لماذا فدك؟ وهي مشكلة تاريخية حول قرية صغيرة في الحجاز؟

ولكن من يتأمل في حيثيات هذه القضية وملفّاتها التاريخية المعقدة لابدّ وأن ينظر بإجلال الىٰ هذه الكتيب المحدود في أوراقه والواسع بافكاره ومنهجه في دراسة واحدةٍ من أعقد معضلات التاريخ والتي ما تزال تثير أسئلة عديدة.

ففدك لم تعد تلك القرية الصغيرة في قلب الحجاز.. لقد أضحت رمزاً لكل الارض الاسلامية. فهي لدى «الصدر» تمتد ـ كما عبّر عن ذلك جدّه ـ «الكاظم» من عدن الىٰ سمرقند.. الى افريقيا.. الى سيف البحر، مما يلى الجزر وأرمينيا. ومشكلة فدك في التاريخ التي حدثت في غمرة التحولات الهائلة التي أعقبت رحيل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ما تزال الىٰ اليوم مشكلة تواجه المنهج التبريري لتاريخ صدر الاسلام بأسئلة محيّرة.

والجدير ذكره هنا أنّ المؤلّف وبالرغم من كتابته للموضوع وهو في فورة الشباب إلّا أنّه كان يجسّد أسمىٰ صيغ التعامل الرفيع مع رجالات العصر النبوي وهو أدب ظل يطبع كلّ فصول حياته القصيرة حتى استشهاده.

وإذا علمتَ انّ هذا السِفر لم يستغرق من الوقت سوىٰ فترة العطلة الدراسية أدركتَ أيّة عبقرية مخزونة في أعماق هذا الإنسان.

ومن «فدك في التاريخ» إلى «فلسفتنا» الذي أحدث دويّاً كبيراً

في الأوساط الفكرية، حتىٰ يمكن القول إنّه قَلَبَ موازين القوىٰ ـ إذا صح التعبير ـ لصالح الإسلاميين الذين بدأوا مرحلة الهجوم بعد أن ظلّوا في مواقع الدفاع سنين طويلة.

والذين عاشوا حقبة الصراع الفكري المريرة في العراق يدركون ماذا فعل «فلسفتنا» و «إقتصادنا» في معادلات الصراع آنذاك.

ان المرء ليحس حرارة إيمان هذا الإنسان من انتخاب اسم الكتاب. انّه اعتداد بالنفس وبالشخصية التي تستمد من الإسلام مقوّماتها وبناءها، وكان الشهيد العظيم بصدد إصدار كتاب آخر هو «مجتمعنا» ولكن القدر لم يمهله.

ومع كلّ هذا الدويّ الذي أحدثه الكتاب، فإننا نصغي إلى كلمات تنمّ عن روح عجيبة هي قبس من روح الأنبياء:

«حينما طبعت هذا الكتاب لم أكن أعرف أنّه سيكون له هذا الصيت العظيم في العالم والدوّي الكبير في المجتمعات البشرية ممّا يؤدي إلى اشتهار من ينسب إليه الكتاب؛ وأنا الآن أُفكّر أحياناً أنّي لو كنت مطّلعاً علىٰ ذلك، وعلىٰ مدىٰ تأثيره في إعلاء شأن مؤلّفه لدى الناس، فهل كنت مستعداً لطبعه باسم (جماعة العلماء) وليس باسمي كما كنتُ مستعداً لذلك أوّلاً؟ وأكاد أبكي خشية أنّي لو كنتُ مطّلعاً

على ذلك لم أكن أستعدّ لطبعه بغير اسمي»[1].

ثم يأتي كتاب «إقتصادنا» ليكون مفاجأة أُخرىٰ، فيجد المسلم الرسالي الذي ينافح عن دينه ملامح أوّل نظرية للإقتصاد الإسلامي، ولا يقف الكتاب عند البناء الإقتصادي للإسلام، بل يتعداه إلى نسف وتقويض المذهبين السائدين في النظم الإقتصادية؛ وهما النظام الرأسمالي والإشتراكي.

وبالرغم من ان الكتاب قد يبدو معالجة لمسائل إقتصادية بحتة، إلّا أنّ القارئ سوف يعثر على أفكار تدعو إلى التأمّل، وحتىٰ يمكن القول أنّها إذا صيغت ضمن إطار خاص فإنّها ستكون أساساً لنظرية رائعة في الحضارة الإسلامية. فالصدر وهو يكتب إنّما يعالج مشكلة كبرىٰ هي مشكلة المسلم المعاصر التي تتمثل في استلهام تجربته الرائعة قبل مئات السنين، ثم بعث حضارته الكبرىٰ من جديد...

لنصغي إلىٰ ما يقوله هذا المفكِّر العظيم في «اقتصادنا»:

ـ التوجيهات الإسلامية هي قوانين علمية تؤتي ثمارها متىٰ توافرت الشروط التي تقتضيها هذه القوانين[2].

---

(١) وقد جاء حديثه بعد طبع الكتاب وكان قد عرضه أوّلاً علىٰ جماعة العلماء ليطبع باسمها غير انّها اشترطت إجراء بعض التعديلات في الكتاب، وكانت غير صحيحة في رأيه، ممّا اضطره إلىٰ طبع الكتاب باسمه.

(٢) إقتصادنا ص ٣١١.

ـ بالرغم من ابتعاد المسلمين عن روح تلك التجربة والقيادة بعداً زمنياً امتدّ قروناً عديدة، وبُعداً روحياً يقدر بانخفاض مستوياتهم الفكرية والنفسية واعتيادهم علىٰ ألوان أُخرىٰ للحياة الإجتماعية والسياسية، بالرغم من ذلك كلّه فقد كان للتحديد الذاتي الذي وضع الإسلام نواته في تجربته الكاملة للحياة دوره الإيجابي الفعّال في ضمان أعمال البر والخير[1].

ـ استطاعت (الرسالة الإسلامية) أن تحدث هزّة روحية كبيرة في نفسه (الإنسان العربي) وتفجّر في أعماقه الإحساس بالمسؤولية.

ـ العلم لا يستطيع حلّ المشكلة الإجتماعية إنّما ينبّه لها.

العلم يكشف الحقيقة بدرجة ما.. وليس هو الذي يطوّرها[2].

ـ الدين هو صاحب الدور الأساس في حلّ المشكلة الإجتماعية عن طريق تجنيد الدافع الذاتي لحساب المصلحة العامة[3].

انظر كيف يفلسف قيام الحضارة الإسلامية:

ـ إن الإنسان هو القوّة المحرّكة للتاريخ[4].

ـ و لم يكن هذا الواقع الإنقلابي الذي خلق أُمّة وأقام حضارة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٠.
(٢) المصدر السابق ص٣٢٣.
(٣) المصدر السابق ص٣٢٦.
(٤) اقتصادنا ص٣٣٨.

وعدّل من سير التاريخ وليد اسلوبٍ جديد في الإنتاج أو تغيّر في أشكاله وقواه [1].

ـ الدين هو الإطار العام لاقتصادنا [2].

واصغ إلىٰ ما يقوله عن الآلة:

ـ الآلة التي تنتج النسيج يومياً ليست ثروة طبيعية خالصة وإنّما هي مادّة طبيعية كيّفها العمل الإنساني خلال عملية إنتاج سابقة [3].

وإذا أضفنا إلى هذه الإشارات إشارات أُخرىٰ وردت في «الإسلام يقود الحياة» أدركنا وجود نظرية متكاملة في ذهن ذلك المفكّر العظيم تفلسف تدهور الحضارة الإسلامية وشروط انبعاثها.

يقول عن معركة «صفين» التي تعدّ أخطر انعطافٍ تاريخي في مسار الحضارة أو أعنف انحراف حضاري في التاريخ:

ـ... إذ أعلن معاوية عن نفسه خليفة على المسلمين بقوّة الحديد والنار وكان ذلك أعظم مأساة في تاريخ الإسلام[4].

وعن انسحاب الإمام المهدي عن مسرح الحياة وبدء عصر الغيبة الكبرىٰ:

---

(١) إقتصادنا: ص ٣٤١.

(٢) المصدر السابق: ص٤٢٧.

(٣) الإسلام يقود الحياة: ص١٦٨.

(٤) الإسلام يقود الحياة: ١٦٨.

ـ وقد فرض هذا الواقع المرير أن يقرّر الإمام الثاني عشر بأمر من الله التواري عن الأنظار انتظاراً للحظة المناسبة التي تتهيّأ فيها الظروف الموضوعية للظهور وإنشاء مجتمع التوحيد في العالم[1].

ثم يُثير تساؤلاً عن سرّ القوّة والإستمرار في الحضارات:

ـ ماذا يجدي نمو الشكل المادي للقوّة مع الهزيمة النفسية من الداخل وانهيار البناء الروحي للإنسان الذي يملك كلّ تلك القوى والأدوات؟! وكم من مرّة في التاريخ انهار بناء حضاري شامخ بأوّل لمسة غازية؛ لأنّه كان منهاراً قبل ذلك وفاقداً للثقة بوجوده والقناعة بكيانه والاطمئنان إلى واقعه.

تأملات في سهل صفين

لم يكن ما حدث في صفين معركة عسكرية ضارية وإن بدت في هذا الإطار، ولم يكن صراعاً سياسياً عنيفاً وإن اتخذ هذا الشكل الرهيب من الصراع.

إنّه تحوّل حضاري في مسار التاريخ الإسلامي أو تحوّل

---

(١) الإسلام يقود الحياة ١٦٩.

تاريخي في منحى الحضارة الإسلامية. يقول مالك بن نـبي المـفكّر الجزائري الراحل:

«إنّ معركة صفين في الواقع تمثّل تذبذب المجتمع الإسلامي في الاختيار.. الاختيار الحتم بين علي ومعاوية.. بين النظام الإسلامي الديمقراطي في المدينة وبين الحكم المستبدّ الغاشم في دمشق. ولكن المجتمع الإسلامي ومع الأسف اختار الطـريق الذي يـؤدّي بـه إلى القابلية للاستعمار ثم إلىٰ الاستعمار».

إننا نشعر بمرارة عليّ (عليه السلام) وهو يتمتم بأسىٰ:

أنزلني الدهر حتىٰ قيل معاوية وعليّ.

ثم وهو يستشرف المستقبل فيقول:

«غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتـعرفونني بـعد خلوّ مكاني وقيام غيري مقامي».

ثم اصغوا إليه وهو يفلسف الحياة في سهل صفين:

الموت في حياتكم مقهورين

والحياة في موتكم قاهرين

وكان عليّ (عليه السلام) يدرك كلّ رموز الصراع، فجسّد ذروة القيم الإنسانية، بينما انتهج خصمه كلّ الوسائل الدنيئة المنحطة؛ لهذا خلد علي عبر القرون واندثر معاوية وإلى الأبد.

ومن هنا أضحت صفين رمزاً للصراع الذي انفجر مرّة أُخرىٰ في كربلاء يوم عاشوراء.

يقول المفكّر الايراني شريعتي:

«وقد صادفت هذه الردّة نجاحاً ما لبث أن أصبح أساساً للفواجع التي تلت بل قانوناً استمر على امتداد تاريخ طويل».

ثم يضيف قائلاً «وهنا نشهد موت القيم وتقوّض روح الثورة ومسارها».

ومن هنا فقد أصبحت صفين رمزاً تاريخياً للصراع والإختيار بين طريقين؛ طريق الإسلام وطريق الجاهلية.

وإذا كان «التاريخ يعيد نفسه كما تعيد الشمس كرّتها من نقطة الإنقلاب»[١] فمن الممكن للمجتمع الإسلامي أن يعيش ذات الظروف التي عاشها في انعطافة صفين مرّة أُخرىٰ، ويواجه ذات الاختيار الدقيق والحاسم.

يقول شريعتي: «من جديد سيولد أبو ذر وعمّار وحجر ومالك وسيضعون جيوشاً تذهب إلىٰ صفين».

لقد عدّ محمّد باقر الصدر استيلاء معاوية على الخلافة أعظم

---

(١) مقولة مشهورة للفيلسوف الألماني نيتشه.

مأساة في تاريخ الإسلام. فيما اعتبرها مالك بن نبي أعظم خطأ ارتكبه المجتمع الإسلامي آنذاك، والذي قاد الأُمّة الإسلامية إلى القابلية للاستعمار ثم الاستعمار.

هذه آراء ثلاثة من المفكّرين عاشوا في بيئات مختلفة وظروف شبه مماثلة وعانوا الكثير من القهر والظلم. فابن نبي كان مغضوباً عليه من الإستعمار الفرنسي وقضىٰ جلّ عمره بعيداً عن وطنه، وشريعتي أُغتيل علىٰ يد السافاك الشاهنشاهي الوثيق الصلة بأميركا، فيما لقي الصدر مصرعه علىٰ أيدي جلّادي البعث العراقي العميل للإنكليز.

ومن المدهش انّ هؤلاء الثلاثة كانوا ينظرون إلى مشكلة العالم الإسلامي بوصفها مشكلة حضارة، وكانت أفكارهم ومواقفهم تتحرّك في هذا المسار.

محطّات أخرىٰ في العطاء

كان «البنك اللاربوي في الإسلام» المحطة التالية في حياة الصدر الفكرية.. حياة لا تعرف إلّا التدفّق والإبداع؛ وقد جاء الكتاب استجابة لطلب تقدّمت به «لجنة التحضير لبيت التمويل الكويتي»

التي تشكلت في وزارة الأوقاف حول بناء نظام مصرفي لا ربـوي؛ وقد جاءت الاطروحة في غاية الروعة والدقّة والإثارة حتى أنّ نجاح التجربة في الكويت حثّت كـثيراً مـن البـلدان الإسـلامية الأُخـرىٰ للاحتذاء بالتجربة الجديدة. ومن المؤسف أننا لا نجد وفاءً من «بيت التمويل الكويتي» ـ الذي حقق أرباحاً خيالية ـ حتىٰ بكـلمة ثـناء واحدة!

والجدير ذكره هنا انّ الصدر كان يخطّط لإنشاء بنك لا ربـوي على أساس موقفين يختلفان اختلافاً جوهرياً. فهذا المفكّر العـظيم كان قد ناقش في كتابه الرائع «إقتصادنا» أُسس النظام الإقـتصادي على أساس «أنّ الدين هو الإطار العالم لاقتصادنا».

والنظام الإسلامي ـ كما قال في مقدّمة «البنك اللا ربوي» ـ كلٌّ مترابط الأجزاء، وتطبيقُ كلّ جزء يهيئ إمكانات النجاح للجزء الآخر في مجال التطبيق ويساعده على أداء دوره.

بينما جاءت الأُطروحة على أساس إنشاء بنك لاربوي في واقع لا يمثّل فيه الإسلام تجربته الشاملة، فيكون بذلك تجربة مـحدودة تمنع جزءاً من محظورات الإسلام وهو الربا.

ولو كانت التجربة شاملة «بتحريم الربا على البنك ضمن تطبيق شامل للنظام الإسـلامي كـلّه» لآتـىٰ «كـلّ ثـماره المـرجـوّة دون

مضاعفات»[1].

ومن دنيا الإقتصاد والمال ينتقل هذا المفكّر الكبير إلىٰ عالم الرياضيات بحقائقه المطلقة، ففي كتابه «الأُسس المنطقية للاستقراء» ينسف قاعدة ينهض عليها المنطق الارسطي في بداهة بعض العلوم كالمحسوسات والتجريبيات، وان هذه العلوم انما تستمد حقيقتها لا على أساس الضرورة، بل على أساس الحساب في الاحتمالات.

ولكي نفهم المنهج الاستقرائي، يسوق المفكّر الشهيد مثالاً من الحياة العادية:

فأنت مثلاً تستلم رسالة من أخيك فتدرك على الفور انّها منه، على أساس من الاستقراء وحساب الاحتمالات التي يجتازها العقل الإنساني في أقل من لحظة. يقول المفكر العبقري:

«إنّك حين تتسلم رسالة بالبريد وتقرأها فتتعرف على انّها من أخيك ـ لا من شخص آخر ممن يرغب في مراسلتك ـ تمارس بذلك استدلالاً استقرائياً قائماً على حساب الاحتمال. ومهما كانت هذه القضية واضحة في نظرك فهي في الحقيقة قضية استنتجتها بدليل استقرائي»[2].

---

(١) «البنك اللاربوي في الإسلام» المقدمة.

(٢) الفتاوى الواضحة ـ المقدّمة.

«فالخطوة الأُولىٰ تواجه فيها ظواهر عديدة من قبيل انّ الرسالة تحمل اسماً يتطابق مع اسم أخيك تماماً، وقد كتبت فيها الحروف جميعاً بنفس الطريقة التي يكتب بها أخوك الألف والباء والجيم والدال والراء إلى آخر الحروف، وقد نسقت الكلمات والفوارق بينها بنفس الطريقة التي اعتادها أخوك، واسلوب التعبير، ودرجة متانته، وما يشتمل عليه من نقاط قوّة أو ضعف، يتماثل مع ما تألفه من أساليب التعبير لدى أخيك، وطريقة الإملاء، وبعض الأخطاء الإملائية المتواجدة في الرسالة، هي نفس الطريقة، ونفس الأخطاء التي اعتادها أخوك في كتابته، والمعلومات التي تتحدّث عنها الرسالة، هي معلومات يعرفها أخوك عادة، والرسالة تطلب منك أشياء، وتعلن عن آراء تتوافق تماماً مع حاجات أخيك، وآرائه التي تعرفها عنه.

وفي الخطوة الثانية تتساءل: هل الرسالة قد أرسلها أخي إليّ حقّاً. أو انّها من شخص آخر يحمل نفس الإسم؟ وهنا تجد انّ لديك فرضية صالحة لتفسير وتبرير كلّ تلك الظواهر، وهي أن تكون هذه الرسالة من أخيك حقّاً، فإذا كانت من أخيك، فمن الطبيعي أن تتوافر كلّ تلك المعطيات التي لاحظتها في المرحلة الأُولىٰ.

وفي الخطوة الثالثة، تطرح على نفسك السؤال التالي:

إذا لم تكن هذه الرسالة من أخي، بل كانت من شخص آخـر، فما هي فرصة أن تتواجد فيها كلّ تلك المعطيات والخصائص التـي لاحظتها في الخطوة الأولىٰ؟ إن هذه الفرصة بـحاجة إلى مـجموعة كبيرة من الافتراضات، لأننا لكي نحصل علىٰ كلّ تـلك المـعطيات والخصائص، في هذه الحالة يجب أن نفترض أن شخصاً آخر يحمل نفس الاسم، ويشابه أخاك تماماً في طريقة رسم كلّ الحـروف مـن الألف والباء والجيم والدال وغيرها، وتنسيق الكلمات، ويشابهه أيضاً في أسلوب التعبير، وفي مستوى الثقافة اللغوية والإملائية، وفي عدد من المعلومات والحاجات، وفي كثير من الظروف والملابسات. وهذه مجموعة من الصدف يعتبر احتمال وجودها جميعاً ضئيلاً جدّاً. وكلّما ازداد عدد هذه الصدف التي لابد من افتراضها، تضاءل الاحتمال أكثر فأكثر.

والأُسس المنطقية للاستقراء تـعلمنا كـيف نـقيس الإحـتمال؟ وتفسّر لنا كيف يتضاءل هذا الاحتمال؟ ولماذا يتضاءل تبعاً لازدياد عدد الصدف التي يفترضها، ولكن ليس من الضروري أن ندخل في تفاصيل ذلك، لأنّها معقدة وصعبة الفهم على القارئ الاعتيادي. ومن حسن الحظّ أن ضآلة الاحتمال لا تتوقف على فهم تلك التفاصيل، كما لا يتوقف سقوط الإنسان من أعلى إلى الأرض على فهمه لقوّة

الجذب واطّلاعه على المعادلة العلمية لقانون الجاذبية. فلست بحاجة إلىٰ شيء لكي تحس بأن احتمال أن يتواجد شخص يشابه أخاك في كلّ تلك الظروف والحالات بعيد جدّاً، وليس البنك بحاجة إلى استيعاب الأُسس المنطقية للاستقراء، لكي يعرف أن درجة احتمال أن يسحب كلّ زبائنه ودائعهم في وقت واحد ضئيل جدّاً، بينما احتمال أن يسحب واحد أو اثنان ليس كذلك.

وفي الخطوة الرابعة تقول: ما دام تواجد كلّ هذه الظواهر في الرسالة أمراً غير محتمل، إلّا بدرجة ضئيلة جدّاً، على افتراض أن الرسالة ليست من أخيك، فمن المرجّح بدرجة كبيرة، بحكم تواجد هذه الظواهر فعلاً، أن تكون الرسالة من أخيك.

وفي الخطوة الخامسة: تربط بين الترجيح الذي قررته في الخطوة الرابعة (ومؤداه أن الرسالة قد أُرسلت من أخيك) وبين ضآلة الاحتمال التي قررتها في الخطوة الثالثة وهي ضآلة احتمال أن تتواجد كلّ تلك الظواهر في الرسالة، بدون أن تكون من أخيك. ويعني الربط بين هاتين الخطوتين: ان درجة ذلك الترجيح، تتناسب عكسياً مع ضآلة هذا الإحتمال. فكلّما كان هذا الاحتمال أقلّ درجة، كان ذلك الترجيح أكبر قيمة وأقوى إقناعاً.

وإذا لم تكن هناك قرائن عكسية تنفي أن تكون الرسالة من

أخيك، فسوف تنتهي من هذه الخطوات الخمس، إلى القناعة الكاملة بأن الرسالة من أخيك.

هذا مثال من الحياة اليومية لكلّ إنسان.

ولنأخذ مثالاً آخر للمنهج، من طرائق العلماء في الاستدلال على النظرية العلمية وإثباتها.

وليكن هذا المثال نظرية نشوء الكواكب السيارة ونصّها:

إن الكواكب السيارة التسع، أصلها من
الشمس، حيث انفصلت عنها كقطع ملتهبة
قبل ملايين السنين.

والعلماء يتفقون على العموم في أصل النظرية، ويختلفون في سبب انفصال تلك القطع عن الشمس.

والاستدلال على أصل النظرية التي يتفقون عليها، يتمّ ضمن الخطوات التالية:

الخطوة الأُولىٰ:

لاحظ فيهاالعلماء عدّة ظواهر أدركوها بوسائل الحسّ والتجربة.

١ ـ منها: إن حركة الأرض حول الشمس، منسجمة مع حركة الشمس حول نفسها، كلّ منها من غرب لشرق.

٢ ـ ومنها: إن دوران الأرض حول نفسها، متوافق مع دوران

الشمس حول نفسها، أي من غرب لشرق.

٣ ـ ومنها: إن الأرض تدور حول الشمس، في مدار يوازي خطّ استواء الشمس، بحيث تكون الشمس كقطب، والأرض نقطة واقعة على الرحىٰ.

٤ ـ ومنها: إن نفس العناصر التي تتألّف منها الأرض، موجودة في الشمس تقريباً.

٥ ـ ومنها: إن هناك توافقاً، بين نسب العناصر من ناحية الكمّ بين الشمس والأرض، فالهيدروجين مثلاً هو العنصر السائد فيهما معاً.

٦ ـ ومنها: إن هناك انسجاماً بين سرعة دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها.

٧ ـ ومنها: ان هناك انسجاماً بين عمري الأرض والشمس، حسب تقدير العلم، لعمر كلّ منهما.

٨ ـ ومنها: إن باطن الأرض ساخن، وهذا يثبت أن الأرض في بداية نشوئها كانت حارّة جدّاً.

هذه بعض الظواهر التي لاحظها العلماء، في الخطوة الأُولىٰ بوسائل الحسّ والتجربة.

الخطوة الثانية:

وجد العلماء أن هناك فرضية يمكن أن تفسّر بها كلّ تلك الظواهر

التي لوحظت في الخطوة الأُولىٰ. بمعنى انّها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تستبطن هذه الظواهر جميعاً وتبررها. وهذه الفرضية هي:

إن الأرض كانت جزءاً من الشـمس، وانفصلت عنها لسبب من الأسباب. فإنّه على هذا التقدير، يتاح لنا أن نفسّر على أساس تلك الظواهر المتقدّمة.

أما الظاهرة الأُولىٰ:

وهي أن حركة الأرض حول الشـمس، مـنسجمة مـع حـركة الشمس حول نفسها، لأنّ كلاًّ منهما من غرب لشرق، فلأن سبب هذا التوافق في الحركة يصبح واضحاً على تقدير صحّة تلك الفرضية، لأن أي جسم يدور إذا انفصلت منه قطعة، وبقيت منشدة إليه بـخيط أو غيره، فإنّها تدور بنفس اتجاه الأصل بمقتضى قانون الاستمرارية.

وأما الظاهرة الثانية:

وهي أن دوران الأرض حول نفسها متوافق مع دوران الشمس حول نفسها، أي مـن غـرب لشـرق، فـالفرضية المـذكورة تكـفي لتفسيرها أيضاً، لأن الجسم المنفصل من جسـم يـدور مـن غـرب لشرق، يأخذ نفس حركته بمقتضىٰ قانون الاستمرارية.

وكذلك الأمر في الظاهرة الثالثة أيضاً.

واما الظاهرة الرابعة والخامسة:

اللتان تعبران عن توافق الأرض والشمس، في العناصر وفي نسبها، فهما مفهومتان بوضوح، على أساس ان الأرض جزء من الشمس، لأن عناصر الجزء نفس عناصر الكلّ.

وأمّا الظاهرة السادسة:

وهي الانسجام بين سرعة دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها، فقد عرفنا ان فرضية انفصال الأرض من الشمس تعني ان حركتي الأرض ناشئتان من حركة الشمس، وهذا يفسّر لنا الانسجام المذكور ويحدّد سببه.

وأما الظاهرة السابعة:

وهي الانسجام بين عمري الأرض والشمس، فمن الواضح تفسيرها على أساس نظرية الانفصال، وكذلك الأمر في الظاهرة الثامنة، التي يبدو منها أن الأرض في بداية نشوئها كانت حارّة جداً، فإن فرضية انفصالها عن الشمس تستبطن ذلك.

الخطوة الثالثة:

يلاحظ انّه على افتراض ان نظرية انفصال الأرض عن الشمس ليست صحيحة، فمن البعيد أن تتواجد كلّ تلك الظواهر وتتجمع، لأنّها تكون مجموعة من الصدف التي ليس بينها ترابط مفهوم،

فاحتمال تواجدها جميعاً على تقدير عدم صحّة النظرية المذكورة ضئيل جدّاً، لأنّ هذا الاحتمال يتطلّب منّا مجموعة كبيرة من الافتراضات لكي نفسّر تلك الظواهر جميعاً.

فبالنسبة إلى انسجام حركة الأرض حول الشمس، مع حركة الشمس حول نفسها، في أنّها من غرب لشرق، لابد ان نفترض أن الأرض كانت جرماً بعيداً عن الشمس، سواء خلقت وحدها، أو كانت جزءاً من شمس أُخرىٰ انفصلت عنها، ثم اقتربت من الشمس، ونفترض أيضاً أن الأرض المنطلقة حينما دخلت في مدارها حول الشمس، دخلت في نقطة تقع في غرب الشمس، فتدور حينئذٍ من غرب لشرق، أي مع اتجاه حركة الشمس حول نفسها، إذ لو كانت قد دخلت في مدار الشمس، في نقطة تقع في شرق الشمس، لكانت تدور من شرق لغرب.

وبالنسبة إلى التوافق بين حركة الأرض حول نفسها، ودوران الشمس حول نفسها، في الاتجاه من غرب لشرق، نفترض مثلاً ان الشمس الأُخرىٰ التي انفصلت عنها الأرض افتراضاً، كانت تدور من غرب لشرق.

وبالنسبة إلىٰ دوران الأرض حول الشمس في مدار يوازي خط استواء الشمس، نفترض مثلاً ان الشمس الأُخرى التي انفصلت عنها

الأرض، كانت واقعة في نقطة عمودية على خط الاستواء للشمس.

وبالنسبة إلى توافق الأرض والشمس في العناصر، وفي نسبها، لابد ان نفترض أن الأرض أو الشمس الأُخرى التي انفصلت عـنها الأرض، قد كانت تشتمل علىٰ نفس عناصر هذه الشـمس وبـنسب متشابهة.

وبالنسبة إلى الانسجام بين سرعة دوران الأرض، حول الشمس وحول نفسها، وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها، فنفترض مثلاً ان الشمس الأُخرى التي انفصلت عنها الأرض، انفجرت بنحو أعطت للأرض المنفصلة نفس السرعة التي تتناسب مع حركة شمسنا.

وبالنسبة إلى الانسجام بين عمري الأرض والشـمس وحـرارة الأرض في بداية نشوئها، نفترض مثلاً أن الأرض كانت قد انفصلت من شمس أُخرىٰ، لها نفس عمر شمسنا، وإنّها انفصلت على نـحو أدّى إلى حرارتها بدرجة كبيرة جدّاً.

وهكذا نلاحظ ان تواجد جميع تلك الظواهر، علىٰ تقدير عدم صحّة فرضية الانفصال، يحتاج إلى افتراض مجموعة من الصـدف، التي يعتبر احتمال وجودها جميعاً ضئيلاً جدّاً، بينما فرضية الانفصال وحدها كافية لتفسير كلّ تلك الظواهر والربط بينها.

وفي الخطوة الرابعة:

نقول ما دام تواجد كلّ هذه الظواهر الملحوظة في الأرض أمراً غير محتمل، إلّا بدرجة ضئيلة جدّاً، على افتراض أن الأرض ليست منفصلة عن هذه الشمس فمن المرجّح بدرجة كبيرة بحكم تواجد هذه الظواهر فعلاً، أن تكون الأرض منفصلة عن الشمس.

وفي الخطوة الخامسة:

نربط بين ترجيح فرضية انفصال الأرض عن هذه الشمس، كما تقرّر في الخطوة الرابعة وبين ضآلة احتمال أن تتواجد كلّ تلك الظواهر في الأرض، بدون أن تكون منفصلة عن هذه الشمس كما تقرّر في الخطوة الثالثة، ويعني الربط بين هاتين الخطوتين، انّه كلّما كانت ضآلة الاحتمال الموضحة في الخطوة الثالثة أشدّ، كان الترجيح المفصح في الخطوة الرابعة أكبر؛ وعلى هذا الأساس نستدلّ علىٰ نظرية انفصال الأرض عن الشمس، وبهذا المنهج حصل العلماء علىٰ قناعة كاملة»[1].

إننا لا يمكننا مواكبة هذا العقل الجبّار في كلّ ما أنتجه فضلاً عن الإحاطة بتلك القابلية الفذّة التي لا تتيسر لإنسان في العصر الحديث.

وليس من المبالغة القول أنّ آراء هذا المفكّر الفيلسوف تحتاج

---

(١) الفتاوى الواضحة ـ المقدمة.

إلىٰ مركز متخصّص في الدراسات الأكاديمية لكي يستكشف أفكاره وآراءه ونظرياته. فوراء كلّ جملة عالَم واسع من المعاني والدلالات.

وهذا استعراض سريع لبعض مؤلفاته الأُولىٰ في مسائل غاية في الحسّاسية، والتي تحتاج إلىٰ دراسات مستفيضة:

- بحث حول المهدي.
- الإنسان المعاصر والمشكلة الإجتماعية.
- منابع القدرة في الدولة الإسلامية.
- بحث حول الولاية.
- دراسة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

إلى غير ذلك من العطاء العلوي الخالد.

لا تلعن الظلام، اشعل شمعة

لم يكتف الصدر بوضع اليد على الجراح النازفة، ويشير إلىٰ مواطن المرض، لأن اكتشاف المرض لا يعني بداهةً معرفة الدواء.

فهذا الفتى الذي وصل «النجف» علىٰ قدر، أدرك كلّ آلام أُمّته بعمقها التاريخي النازف، وبحاضرها المريض، فراح يفجّر ينابيع الخير لتسيل أودية بقدر.

لقد عاش المفكّر الصدر في حقبة تاريخية بالغة الخطورة، وكان الفكر الإسلامي يعيش حالة من الجمود، في فترة كانت الأفكار المستوردة تجد لها أنصاراً متحمّسين، وكان الدين في مهبّ إعصار فيه نار، وكانت الحصون مهدّدة من داخلها، وفي هذه الظروف ولد محمّد باقر الصدر قائداً ومفكّراً وأباً رحيماً لأُمّة منكوبة.

يعدّ عام ١٩٥٨ م ـ ١٣٧٨ هـ بداية التغيّرات الهائلة فكرياً وسياسياً، حيث كانت الجبهة الإسلامية ـ إذا صحّ التعبير ـ تهتزّ بعنف. ففي غمرة الصراع بين التيار الماركسي المدعوم حكومياً والتيار القومي، ولدت الحاجة لموقفٍ إسلامي واضح، فكانت «جماعة العلماء» التي يمكن أن نقول بحقّ ان وجودها يرتبط بشكل رئيسي بعقليّة السيّد الشهيد الصدر[1].

«ورغم ان السيّد الشهيد رضوان الله عليه لم يكن أحد أعضاء (جماعة العلماء) لصغر عمره!! إلّا انّه كان له دور رئيسي في تحريكها وتوجيهها»[2].

وشقّت «جماعة العلماء» طريقها في غمرة تلك الأفكار، فكانت «الأضواء» البداية المشرقة لإطلالة الموقف الإسلامي فكرياً

---

(١) مجلة الجهاد ـ العدد ١٤ ـ جمادى الثانية ١٤٠١ هـ.
(٢) المصدر السابق.

وسياسياً، وكان للمفكّر الصدر عمود «رسالتنا» الذي بدأ يحرّك الأصدقاء ويغيظ الأعداء.

الكثيرون بل والكثرة الغالبة لا تفهم لعبة الصراع الفكري، حيث يرصد الاستعمار الأفكار الخطيرة، ثم يبدأ تطويقها وقتلها بخفاء، وهكذا وُضع الصدر في قائمة الخطرين منذ ذلك التاريخ، وبدأت الملاحقة لأفكاره.

ومن نافلة القول أنّ الصدر كان بمستوى الرجل الذي أدرك كلّ أساليب العدوّ، فكان يتصرّف بهدوء ويفوّت الفرص التي يحاول الاستعمار التسلل منها.

كتب مرّة وكان ذلك عام ١٣٨٠ هإلى أحد تلامذته يبثّه همومه: «... لقد كان بعدك أنباء وهنبثة، وكلام وضجيج وحملات متعدّدة جُنِّدت كلّها ضد صاحبك وبغية تحطيمه».

وتأمّل هاتين الكلمتين «أنباء وهنبثة»، لتستشفّ من ورائها عمق المعاناة، خاصّة إذا علمنا أنّهما وردتا ربّما مرّة واحدة في التاريخ وعلى لسان فاطمة الزهراء(عليها السلام)، في حادثة اغتصاب الميراث المؤسفة.

لقد كانت الزهراء (عليها السلام) تعيش أوّل محنة في الإسلام، عندما خاطبت أباها الراحل بكلمات تقطر حزناً ولوعة:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة

لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

أبدت رجال لنا نجوىٰ صدورهم

لما مضيت وحالت دونك الترب

والله وحده الذي يُراقب الأعماق، ويحيط بكلّ شيء. وربّما يأتي اليوم الذي تنكشف فيه كثير من الأسرار والخفايا، ويسجّل التاريخ تفاصيل المحنة التي مرّت بهذا الرجل العظيم، والخناجر المسمومة التي كانت تسدّد له في قلب الليل.

ومخطئ من يتصوّر انّ الحرب التي شنّت ضدّه كانت محلّية تواجه كلّ انسان يحاول إلقاء حجر في البحيرة الساكنة وكسر حالة الجمود، وأنّها نابعة من بعض ذوي النفوس المريضة والمتخلّفة.

إنّ محمّد باقر الصدر كان ظاهرة تهدّد الوجود الاستعماري. وإذا شئت فقل «القابلية للاستعمار»، وإنّ أطرافاً دولية يهمّها مستقبل العراق هي التي كانت تدير لعبة الصراع فكرياً ومن وراء حجاب، وإن تلك الأطراف استفادت من الواقع الفكري والنفسي في تجنيد أعداء محلّيين، كانوا يضربون بقسوة. وكان الصدر يتأوّه وحيداً ويسكت على مضض، فالصبر كان سلاحه الوحيد؛ والصبر سلاح الأنبياء.

يقول الشاهد الشهيد:

«ابتدأت تلك الحملات في أوساط «الجماعة» التوجيهية المشرفة على «الأضواء»؛ أو بالاحرى لدىٰ بعضهم ومن يدور في فلكهم».

وفي رسالة أُخرىٰ يقول: «لا أستطيع أن أذكر تفصيلات الأسماء في مسألة (جماعة العلماء) وحملتها على (الأضواء)!... ولكن أكتفي بالقول، بأن بعض الجماعة كان نشيطاً في زيارة أعضاء (جماعة العلماء)، لإثارتهم على (الأضواء) وعلىٰ (رسالتنا)»[1].

ويمكن القول ان الصراع المرير الذي خاضه الصدر قد وصل إلىٰ تعادل في الأهداف، فقد وفّق الصدر بعبور الأزمة فمرّت بسلام واستمرت الأضواء بالصدور كما توقّع لها:

«حدسي أنّ الأضواء سوف تستمر إن شاء الله تعالى؛ لأنّها تتمتع الآن برصيد قويّ من الداخل والخارج»[2].

أما خصومه فقد نجحوا في إيقاف القلم الذي كان يمدّ «رسالتنا» بالأفكار المقاتلة.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ولإيمان السيّد الصدر (قدس سرّه الشريف) بدور الجامعات في قضية التغيير الثقافي التي تسبق في الواقع كلّ التغيّرات الإجـتماعية والسياسية انطلاقاً من قوله سبحانه «ان الله لا يُغيّر مـا بـقومٍ حـتىٰ يُغيّروا ما بأنفسهم».. انطلاقاً من ذلك كان «الصدر» في طليعة مـن أسهموا في إنشاء «كلّية اصول الدين في بغداد»، وأعدّ الشهيد الجزء الحساس من المنهج الدراسي فيها. فمن أجلها كتب «المعالم الجديدة في علم الأُصول» كما كتب مادّة «علوم القرآن» لطلاّب السنة الأُولىٰ والثانية، كما كتب مادّة «الاقتصاد الإسلامي» إضافة إلىٰ مسـاهمته الفعّالة في مجلّة «رسالة الإسلام» التي تصدرها الكليّة[1].

ومن أجل أن تتضح الصورة، ولو بشكل عام، نورد هذه السطور عن زيارة التونسي الدكتور محمّد التـيجاني السـماوي الذي التـقى الصدر علىٰ قدر. فتحت عنوان «لقاء مع محمّد باقر الصدر» كـتب التيجاني يقول:

---

(١) عن كتاب الجهاد السياسي.

لقاء مع محمد باقر الصدر

«اتجهت بصحبة السيد أبو شبّر الى بيت السيد محمد باقر الصدر. في الطريق كان يلاطفني ويعطيني بسطة عن العلماء المشهورين، وعن التقليد وغير ذلك، ودخلنا على السيد محمد باقر الصدر في بيته، وكان مليئاً بطلبة العلوم وأغلبهم من الشباب المعمّمين وقام السيد يسلّم علينا، وقدّموني إليه، فرحّب بي كثيراً وأجلسني بجانبه، وأخذ يسألني عن تونس والجزائر وعن بعض العلماء المشهورين أمثال الخضر حسين والطاهر بن عاشور وغيرهم، وآنست بحديثه، ورغم الهيبة التي تعلوه والاحترام الذي يحوطه به جلساؤه، وجدت نفسي غير محرَج وكأنّي أعرفه من قبل، واستفدت من تلك الجلسة، إذ كنت أسمع أسئلة الطلبة وأجوبة السيد عليها، وعرفت وقتها قيمة تقليد العلماء الأحياء الذين يجيبون على كل الاشكالات مباشرة وبكلّ وضوح، وتيقّنت أيضاً من أن الشيعة مسلمون يعبدون الله وحده، ويؤمنون برسالة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ كان بعض الشك يراودني والشيطان يوسوس لي بأنّ ما شاهدته قبل هو تمثيل، وربّما يكون ما يسمّونه بالتقية، أي

أنهم يُظهرون ما لايعتقدون، ولكن سرعان ما يزول الشك وتضمحلّ تلك الوساوس، إذ لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يتفق كل من رأيتهم وسمعتهم ـ وهم مئات ـ على هذا التمثيل، ثم هذه كتبهم القديمة التي كتبت منذ قرون، والحديثة التي طبعت منذ شهور، وكلّها توحّد الله وتثني على رسوله محمّد، كما قرأت ذلك في مقدّماتها، وها أنا الآن في بيت السيّد محمد باقر الصدر، المرجع المشهور في العراق وفي خارج العراق، وكلّما ذكر اسم محمّد صاح الجميع في صوت واحد: «اللّهم صلّ على محمد وآل محمّد».

وجاء وقت الصّلاة وخرجنا إلى المسجد وكان بجوار البيت، وصلّى بنا السيّد محمد باقر الصدر صلاة الظهر والعصر، وأحسست بأنّي أعيش وسط الصحابة الكرام فقد تخلّل الصلاتين دعاء رهيب من أحد المصلّين، وكان له صوت شجي ساحر. وبعدما أنهى الدّعاء صاح الجميع: «اللّهم صلّ على محمد وآل محمّد». وكان الدعاء كلّه ثناءً وتمجيداً على الله جلّ جلاله ثم على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

وجلس السيّد في المحراب بعد الصلاة. وأخذ البعض يسلّمون عليه ويسألونه سرّاً وعلانية، وكان يجيب سرّاً لبعض الاسئلة التي تتطلّب الكتمان، فهمت بأنها تتعلّق بشؤون خاصّة، وكان السائل إذا

حصل على الجواب يقبّل يده وينصرف. هنيئاً لهم بهذا العالم الجليل الذي يحلّ مشاكلهم ويعيش همومهم.

رجعنا بصحبة السيد الذي أولاني من الرعاية والعناية وحسن الضيافة ما أنساني أهلي وعشيرتي، وأحسست بأني لو بقيت معه شهراً واحداً لتشيّعت لحسن أخلاقه وتواضعه وكرم معاملته، فلم أنظر إليه إلا وابتسم في وجهي وابتدرني بالكلام، وسألني هل ينقصني شيء، فكنت لا أغادره طيلة الأيام الأربعة إلّا للنّوم، رغم كثرة زوّاره والعلماء الوافدين عليه من كل الأقطار، فقد رأيت السعوديين هناك، ولم أكن أتصوّر بأنّ في الحجاز شيعة، وكذلك علماء من البحرين ومن قطر ومن الإمارات ومن لبنان وسوريا وإيران وأفغانستان ومن تركيا ومن أفريقيا السوداء. وكان السيد يتكلّم معهم ويقضي حوائجهم ولا يخرجون من عنده إلّا وهم فرحون مسرورون.

ولا يفوتني أن أذكر هنا قضية حضرتها وأعجبت في كيفية فصلها، وأذكرها للتاريخ لما لها من أهميّة بالغة حتى يعرف المسلمون ماذا خسروا بتركهم حكم الله.

جاء إلى السيد محمد باقر الصدر أربعة رجال ـ أظنّهم عراقيين، عرفت ذلك من لهجتهم ـ كان أحدهم ورث مسكناً من جدّه الذي توفّي منذ سنوات، وباع ذلك المسكن إلى شخص ثان كان هو الآخر

حاضراً، وبعد سنة من تاريخ البيع جاء إخوان، وأثبتا أنهما وارثـان شرعيان للميـت، وجلس أربعتهم أمام السيد، وأخـرج كـل واحـد منهم أوراقه وما عنده من حجج. وبـعدما قـرأ السـيد كـل أوراقـهم وتحدّث معهم لبضع دقائق، حكم بينهم بالعدل، فأعطى الشاري حقه في التصرف بالمسكن، وطلب من البائع أن يدفع للأخوين نصيبهما من الثمن المقبوض، وقام الجميع يقبّلون يده، ويـتعانقون. ودهشت لهذا ولم أصدّق وسألت أبا شبّر: هل انتهت القضية؟ قال: (خلاص، كلّ اخذ حقّه). قلت: سـبحان الله! وبـهذه السـهولة، وبـهذا الوقت الوجيز، بضع دقائق فقط كافية لحسم النزاع؟ إنّ مثل هذه القضية في بلادنا تستغرق عشر سنوات عـلى أقـل تـقدير ويـموت بـعضهم، ويواصل أولاده بـعده تـتّبع القـضيّة، ويـصرفون لرسـوم المـحكمة والمحامين ما يكلّفهم في أغلب الأحيان ثمن المسكن نفسه، ومـن المحكمة والمحامين ما يكلّفهم في أغلب الاحـيان ثـمن المسكـن نفسه، ومن المحكمة الابـتدائـية إلى مـحكمة الاسـتئناف، ثـم إلى التعقيب، وفي النهاية يكون الجميع غير راضـين بـعدما يكـونوا قـد انهكوا بالتّعب والمصاريف والرشوة، والعداوة والبغضاء بين عشائرهم وذويهم.

أجابني أبو شبّر: وعندنا أيضاً نفس الشيء أو أكثر. فقلت: كيف؟

قال: إذا كانوا يقلّدون المرجع الديني ويلتزمون بالأحكام الإسلامية، فلا يرفعون قضاياهم إلا إليه، فيفصلها في بضع دقائق كما رأيت، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يعقلون؟ والسيد الصدر لم يأخذ منهم فلساً واحداً، ولو ذهبوا إلى المحاكم الرسمية لتعرّت رؤوسهم.

ضحكت لهذا التعبير الذي هو سارٍ عندنا أيضاً، وقلت: سبحان الله! أنا لا زلت مكذباً ما رأيت، ولو لا ما شاهدته بعيني ما كنت لأصدّق أبداً. فقال أبو شبّر: لا تكذب ـ يا أخي ـ فهذه بسيطة بالنسبة الى غيرها من القضايا التي هي أشدّ تعقيداً وفيها دماء، ومع ذلك يحكم فيها المراجع ويفصلونها في سويعات، فقلت متعجّباً: إذاً عندكم في العراق حكومتان: حكومة الدولة وحكومة رجال الدين، فقال: كلا عندنا حكومة الدولة فقط، ولكنّ المسلمين من الشيعة الذين يقلّدون مراجع الدين، لا علاقة لهم بالحكومة، لانها حكومة البعث وليست حكومة اسلامية، فهم خاضعون لها بحكم المواطنة والضرائب والحقوق المدينة والاحوال الشخصية، فلو تخاصم مسلم ملتزم مع أحد المسلمين غير الملتزمين فسوف يضطر حتماً لرفع قضيته إلى محاكم الدولة، لأنّ هذا الاخير لا يرضى بتحكيم رجال الدين، أمّا إذا كان المتخاصمون ملتزمين فلا إشكال هناك، وما يحكم به المرجع الديني نافذ على الجميع. وعلى هذا الاساس تحل القضايا

التي يحكم فيها المرجع في يومها بينما تظلّ القضايا الأخرى شهوراً وأعواماً.

إنّها حادثة حركت في نفسي شعور الرضى بأحكام الله سبحانه وتعالى، وفهمت معنى قوله تعالى في كتابه المجيد:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون،.. ومـن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون،.. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون...»[1]

كما حركت في نفسي شعور النقمة والثورة على هؤلاء الظلمة الذين يبدّلون أحكام الله العادلة، بأحكام وضعية بشرية جائرة، ولا يكفيهم كل ذلك بل ينتقدون ـ بكل وقاحة وسخرية ـ الأحكام الإلهية، ويقولون بأنها بربرية ووحشية لأنها تقيم الحدود، فتقطع يد السارق، وترجم الزاني، وتقتل القاتل، فمن أين يا ترى جاءتنا هذه النظريات الغريبة عنّا وعن تراثنا؟ لا شكّ انها من الغرب ومن أعداء الإسـلام الذين يدركون أنّ تطبيق أحكام الله يعني القضاء عليهم نهائياً، لأنهم سرّاق، خَوَنة، زناة، مجرمون وقتلة. ولو طبقت أحكـام الله عـليهم لاسترحنا من هؤلاء جميعاً.

---

(١) سورة المائدة ـ آية ٤٤، ٤٥ و ٤٧.

وقد دارت بيني وبين السيد محمد باقر الصدر في تـلك الأيـام حوارات عديدة، وكنت أسأله عن كلّ صغيرة وكبيرة من خـلال مـا عرفته من الأصدقاء الذين حدّثوني عن كثير من عقائدهم وما يقولونه في الصحابة رضي الله عنهم وما يعتقدونه في الائمة الاثـني عشـر، علي وبنيه، وغير ذلك من الأشياء التي نخالفهم فيها.

سألت السيد الصدر عن الامام علي، ولمـاذا يشـهدون له فـي الاذان بأنّه ولّي الله؟! أجاب قائلاً: إنّ أمير المؤمنين علي سلام الله عليه وهو عبد من عبيد الله الذين اصطفاهم الله وشرفهم ليـواصـلوا حمل أعباء الرسالة بعد أنبيائه، وهؤلاء هم أوصياء الأنبياء، فـلكل نبي وصي، وعلي بن أبي طالب هو وصيّ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، ونحن نفضّله على سائر الصحابه بما فضّله الله ورسوله، ولنا في ذلك أدلّة عقلية ونقلية من القرآن والسنة، وهذه الأدلّة لا يمكن أن يتطرّق إليها الشك لأنها متواترة وصحيحة من طرقنا وحتى من طرق أهل السنّة والجماعة، وقد ألّف في ذلك علماؤنا العديد من الكتب، ولّما كان الحكم الأموي يقوم على طمس هذه الحقيقة ومحاربة أمير المؤمنين علي وأبنائه وقتلهم، ووصل بهم الأمر إلى سبّه ولعنه على منابر المسلمين وحمل الناس على ذلك بالقهر والقوّة، فكان شـيعته وأتباعه رضي الله عنهم يشهدون أنّه ولّي الله، ولا يمكن للمسلم أن

يسّب ولي الله، وذلك تحدّياً منهم للسلطة الغاشمة حتى تكون العزة لله ولرسوله والمؤمنين، وحتى تكون حافزاً تاريخيا لكل المسلمين عبر الاجيال فيعرفون حقيقة علي وباطل أعدائه.

ودأب فقهاؤنا على الشهادة لعلي بالولاية في الآذان والإقامة استحباباً، لا بنيّة أنّها جزء من الآذان أو الإقامة، فإذا نوى المؤذّن أو المقيم أنّها جزء بطل أذانه وإقامته. والمستحبّات في العبادات والمعاملات لا تحصى لكثرتها، والمسلم يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها، وقد ورد على سبيل المثال أنه يذكر استحباباً بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، بأن يقول المسلم: وأشهد أن الجنّة حق والنار حق وأنّ الله يبعث من في القبور.

قلت: إنّ علماءنا علّمونا أنّ أفضل الخلفاء على التحقيق سيّدنا أبو بكر الصدّيق، ثم سيّدنا عمر الفاروق، ثم سيدنا عثمان، ثم سيدنا علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين؟

سكت السيّد قليلاً: ثم أجابني:

لهم أن يقولوا ما يشاؤون، ولكن هيهات أن يثبتوا ذلك بالأدلّة الشرعيّة، ثم إن هذا القول يخالف صريح ما ورد في كتبهم الصحيحة المعتبرة، فقد جاء فيها: أنّ أفضل الناس أبو بكر وعمر ثم عثمان ولا وجود لعلي، بل جعلوه من سوقة الناس، وإنّما ذكره المتأخرون

استحباباً لذكر الخلفاء الراشدين.

سألته بعد ذلك عن التربة التي يسجدون عليها، والتي يسمّونها «بالتربة الحسينية». أجاب قائلاً:

يجب أن نعرف قبل كل شيء أنّنا نسجد على التراب، ولا نسجد للتراب، كما يتوهّم البعض الذين يشهّرون بالشيعة، فالسجود هو للّه سبحانه وتعالى وحده، والثابت عندنا وعند أهل السنة أيضاً أنّ أفضل السجود على الارض أو ما أنبتت الارض من غير المأكول والملبوس، ولا يصحّ السجود على غير ذلك، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يفترش التراب، وقد اتّخذ له خمرة من التراب والقش يسجد عليها، وعلّم أصحابه رضوان الله عليهم فكانوا يسجدون على الارض، وعلى الحصى، ونهاهم أن يسجد أحدهم على طرف ثوبه، وهذا من المعلومات بالضرورة عندنا.

وقد اتخذ الامام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين (عليهما السلام) تربة من قبر أبيه أبي عبد الله باعتبارها تربة زكية طاهرة سالت عليها دماء سيد الشهداء، واستمر على ذلك شيعته إلى يوم الناس هذا، فنحن لا نقول بأن السجود لا يصحّ إلا عليها، بل نقول: بأن السجود يصح على أية تربة أو حجرة طاهرة كما يصح على الحصير والسجاد المصنوع من سعف النخيل وما شابه ذلك.

قلت ـ على ذكر سيدنا الحسين رضي الله عنه ـ : لماذا يـبكي الشيعة ويلطمون ويضربون أنفسهم حتى تسيل الدّماء؛ وهذا مـحرّم في الإسلام، فقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «ليس منّا من لطم الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»؟!

أجاب السيّد قائلاً: الحديث صحيح لا شكّ فيه ولكنّه لا ينطبق على مأتم أبي عبد الله، فالذي ينادي بثأر الحسين ويمشي على درب الحسين، دعوته ليست دعوى جاهلية، ثم إن الشيعة بشر فيهم العالم وفيهم الجاهل ولديهم عواطف، فإذا كانت عواطفهم تطغى عليهم في ذكرى استشهاد أبي عبد الله وما جرى عليه وعلى أهله وأصحابه من قتل وهتك وسبي، فهم مأجورون لأنّ نواياهم كلّها في سبيل الله، والله سبحانه وتعالى يعطي العباد على قدر نواياهم، وقد قرأت منذ أسبوع التقارير الرسمية للحكومة المصرية بمناسبة موت جمال عبد الناصر، تقول هذه التقارير الرسمية بأنّه سجّل أكثر من ثماني حالات انتحارية قتل أصحابها أنفسهم عند سماع النبأ، فمنهم من رمى نفسه من أعلى العمارة، ومنهم مـن ألقـى بـنفسه تـحت القـطار وغـير ذلك، وأمـا المجروحون والمصابون فكثيرون، وهذه أمثلة أذكرها للعواطف التي تطغي على أصحابها، وإذا كان الناس وهم مسلمون بلا شك يقتلون أنفسهم من أجل موت جمال عبد الناصر وقد مـات مـوتاً طـبيعياً،

فليس من حقّنا ـ بناءً على مثل هذا ـ أن نحكم على أهل السنّة بأنهم مخطئون.

وليس لأخواننا من أهل السنّة أن يحكموا على اخوانهم من الشيعة بأنهم مخطئون في بكائهم على سيد الشهداء، وقد عاشوا محنة الحسين ومازالوا يعيشونها حتى اليوم، وقد بكى رسول الله نفسه على ابنه الحسين وبكى جبرئيل لبكائه.

قلت: ولماذا يزخرف الشيعة قبور أوليائهم بالذهب والفضّة وهو محرّم في الاسلام؟

أجاب السيد الصدر: ليس ذلك منحصراً بالشيعة، ولا هو حرام، فها هي مساجد إخواننا من أهل السنّة سواء في العراق أو في مصر أو في تركيا أو غيرها من البلاد الإسلامية مزخرفة بالذهب والفضّة، وكذلك مسجد رسول الله في المدينة المنوّرة، وبيت الله الحرام في مكّة المكرّمة الذي يُكسى في كل عام بحلّة ذهبية جديدة يصرف فيها الملايين، فليس ذلك منحصراً بالشيعة.

قلت: إنّ علماء السعودية يقولون: إن التمسّح بالقبور ودعوة الصالحين والتبرّك بهم، شرك بالله، فما هو رأيكم؟

أجاب السيد محمّد باقر الصدر:

إذا كان التمسّح بالقبور ودعوة أصحابها بنية أنهم يضرّون

وينفعون، فهذا شرك، لا شك فيه، وإنما المسلمون موحّدون ويعلمون أن الله وحده هو الضارّ والنافع، وإنّما يدعون الأولياء والائمة (عليهم السلام) ليكونوا وسيلتهم إليه سبحانه، وهذا ليس بشرك، والمسلمون سنّة وشيعة متّفقون على ذلك من زمن الرّسول الى هذا اليوم، عدا الوهابيّة وهم علماء السعودية الذين ذكرت، والذين خالفوا إجماع المسلمين بمذهبهم الجديد الذي ظهر في هذا القرن، وقد فتنوا المسلمين بهذا الاعتقاد وكفّروهم وأباحوا دماءهم، فهم يضربون الشيوخ من حجّاج بيت الله الحرام لمجرّد قول أحدهم: السلام عليك يا رسول الله، ولا يتركون أحداً يتمسّح على ضريحه الطاهر، وقد كان لهم مع علمائنا مناظرات، ولكنهم أصرّوا على العناد واستكبروا استكباراً. فإن السيد شرف الدين من علماء الشيعة لمّا حجّ بيت الله الحرام في زمن عبد العزيز آل سعود، كان من جملة العلماء المدعوّين لقصر الملك لتهنئته بعيد الأضحى كما جرت العادة هناك. ولما وصل الدور إليه وصافح الملك، قدّم إليه هديّة وكانت مصحفاً ملفوفاً في جلد، فأخذه الملك وقبّله ووضعه على جبهته تعظيماً له وتشريفاً، فقال له السيد شرف الدين عندئذ: أيها الملك لماذا تقبّل الجلد وتعظّمه وهو جلد ماعز؟ أجاب الملك: أنا قصدت القرآن الكريم الذي بداخله ولم أقصد تعظيم الجلد! فقال السيد شرف الدين عند

ذلك: أحسنت أيها الملك، فكذلك نفعل نحن عندما نقبّل شبّاك الحجرة النبويّة أو بابها، فنحن نعلم انه حديد لا يضرّ ولا ينفع، ولكنّنا نقصد ما وراء الحديد وما وراء الأخشاب. نحن نقصد بذلك تعظيم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما قصدت أنت القرآن بتقبيلك جلد الماعز الذي يغلّفه.

فكبّر الحاضرون إعجاباً له وقالوا: صدقت.

واضطرّ الملك وقتها إلى السماح للحجّاج أن يتبركوا بآثار الرسول حتى جاء الذي بعده، فعاد إلى القرار الأوّل. فالقضية ليست خوفهم أن يشرك الناس بالله، بقدر ما هي قضية سياسية قامت على مخالفة المسلمين وقتلهم لتدعيم ملكهم وسلطتهم على المسلمين، والتاريخ أكبر شاهد على ما فعلوه في أمّة محمد.

وسألته عن الطرق الصوفية فأجابني بإيجاز: بأنّ فيها ما هو إيجابي، وفيها ما هو سلبي، فالإيجابي منها: تربية النفس، وحملها على شظف العيش، والزهد في ملذّات الدنيا الفانية، والسموّ بها إلى عالم الأرواح الزكية. أمّا السلبي منها: فهو الانزواء والهروب من واقع الحياة وحصر ذكر الله في الاعداد اللفظية وغير ذلك، والإسلام ـ كما هو معلوم ـ يقرّ الايجابيات ويطرح السلبيات، ويحقّ لنا أن نقول: بأن مبادئ الاسلام وتعاليمه كلّها إيجابية.

كان الصدر يعيش هاجس التغيير مع البدايات الأُولىٰ من وصوله مدينة النجف الأشرف، وكان في سنّ لا تسمح له بالظهور في الواجهة بسبب المعادلات النفسية التي تحكم الجوّ الثقافي السائد آنذاك.

على انّ شخصية مثل الصدر لم تكن لتكترث للمسائل الذاتية، بقدر ما كانت لتهتمّ بالآفاق البعيدة، في المدى الذي كان الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) يتطلّعون إليه؛ ولهذا كان الصدر يخطو علىٰ هون كما البنفسج يملأ الفضاء بشذاه دون أن يراه أحد.

ويمكن القول بأنّ مساحة واسعة من تاريخ العراق الحديث، تعود إلىٰ مواقف وهموم فرد واحد هو الصدر الشهيد. فالتحوّلات الكبرى التي شهدتها البلاد، إنّما ترجع إلىٰ بعض المشاريع السياسية والثقافية الضخمة التي ولدت باهتمام أو مساهمة فعّالة من لدنه.

ويعدّ تشكيل «حزب الدعوة الإسلامية» إحدىٰ أهمّ الحركات السياسية والثقافية التي حرّكت الوضع السائد آنذاك باتجاه الإسلام عقيدةً ونظاماً، وكانت بمثابة إلقاء حجر ثقيل في بحيرة ساكنة.

ومن هنا فإنّ عملاً من هذا القبيل يعدّ غريباً بل ونشازاً آنذاك،

نتيجة التحفظات التي لا تجد مسوغاً للعلاقة بين السياسة والديـن، وكان لابدّ لذلك العمل من أن يثير بعض التساؤلات والانتقادات بل وحتى الاتهامات؛ الأمر الذي دفع بالمرجـع الكـبير السـيّد مـحسن الحكيم إلىٰ أن يطلب منه الانفصال عن «حزب الدعـوة» حـتىٰ لا يحسب على جهة إسلامية معينة أو داخل إطار خاصّ.

ولقد استجاب الصدر فوراً لإرادة المرجع، وهـذا لا يـعني فـي الواقع قناعة بوجهة نظر الطرف الآخر، بقدر ما يعبّر عن قناعة الصدر الشهيد بان عدم الاستجابة سيولّد مضاعفات خطيرة [1].

---

(١) لم يكن السيّد الحكيم حسنياً في نسبه فحسب، بل وفي مواقفه أيضاً والتـي كـان السلام طابعاً عامّاً لها، وهو وإن لا يصرّح بذلك علناً ولكنه يبدو واضحاً من خلال مواقفه التي تشبه إلىٰ حدٍّ بعيد مواقف المرجع الكبير «البروجردي» الذي عاش في إيران ظروفاً مماثلة. ولعلّ أبلغ تعبير عن ذلك هذا الحوار الذي دار بينه وبين الإمام الخميني (رضوان الله عليه) لدىٰ وصول الأخير النجف الأشرف في منفاه الثاني:
الإمام: أتمنىٰ أن تذهب إلى إيران لتشهد ما يجري هناك على امّة الإسلام. فيما مـضىٰ كنتُ أُعلّل سكوت المرحوم البروجردي إزاء دولة الجبابرة لأنّه لم يسمع بما يـفعلونه، كما كنت أفسّر صمتكم هذا؛ لأنّكم بمنأىٰ عمّا تقوم به حكومة إيران من كوارث، وإلاّ فإنّكم لن تسكتوا.
لقد احتفلت السلطة في طهران بمرور ٣٥ سنة على حكـم بـهلوي وأنـفقوا ٤٠٠/٠٠٠ دولار كانوا قد انتزعوها من الناس بالقوّة وأحضروا ٨٠٠ فـتاة و ٨٠٠ فـتىٰ لـلدعاء! وحدث ما يخجلني التحدّث به.
الحكيم: ليس من اللائق ان أذهب إلى إيران بينما أنتم هنا؛ ثم ماذا سيؤثر ذهابي؟
الامام: سيؤثر حتماً، نحن بنهضتنا أوقفنا مشاريع خطيرة للحكومة، كيف لا يؤثر ذلك؟ لو اتّحد العلماء فإنّ التأثير مؤكّد.
=

= الحكيم: لو يمكن الاهتمام أيضاً بطريق عقلائي وهذا أفضل.
الإمام: ان هدفنا هو الطريق العقلائي لأننا نرفض أصلاً طريق غير العقلاء، ومرادي موقف علماء وعقلاء الأمّة.
الحكيم: إنّ الأمّة لن تتبعنا لو انتخبنا طريقاً عنيفاً.. وهذا سيكون له ضرر بالغ على الدين.
الإمام: لقد أثبتت الأمّة شهامتها في مذبحة « ١٥ خرداد ».
الحكيم: إذا قمنا بالثورة وسالت الدماء ستحدث ضجّة وسيبتعد عنّا الشعب.
الإمام: اننا ثرنا فلم نجد من الأمّة غير الاحترام وتقبيل الأيدي وعاف الناس من كان له موقف غير الثورة. وفي منفاي بتركيا زرت قرية لا أذكر اسمها الآن؛ وأخبرني الأهالي هناك انّه عندما كان « آتاتورك » منهمكاً في الحملة على الدين اجتمع العلماء واتخذوا قرار المواجهة ضد اتاتورك، وقد قام اتاتورك بحصار القرية وقتل أربعين من علماء تركيا، ولقد شعرت بالخجل وفكّرت في نفسي إذ كيف يقوم علماء السنّة وهم يرون الخطر محدقاً بدينهم ويقدمون دماءهم رخيصة بينما يشهد علماء الشيعة أخطاراً عظيمة تهدّد الدين فلا نصاب حتى بالرعاف! أمر مخجل حقّاً.
الحكيم: ماذا ينبغي فعله، لنحتمل وجود أثر أوّلاً، وإلّا ما جدوى القتل؟
الإمام: إن الأعمال التخريبية ضد الدين لها شكلان. فمثلاً كان « رضا خان » بعيداً عن الدين وكان يقول سأفعل كذا وكذا ولم يكن ليقيم وزناً للشرع، وبالطبع فإن معارضته ستكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن هذا « الشاه » يبرّر كلّ عمل ضد القرآن والمذهب قائلاً: انّه من صميم الدين، وإن القرآن يقول ذلك، أنا أتحدّث عن القرآن!!، وهذه بدعة كبرىٰ. لندع التاريخ يسجّل ان الدين لما تعرّض للخطر فإن بعضاً من علماء الشيعة ثاروا وأنّ فريقاً منهم قُتلوا.
الحكيم: ما جدوىٰ التاريخ، نحن نبحث عن الأثر.
الإمام: كيف لا يكون للتاريخ فائدة؟! ألم تقدّم ثورة الحسين (عليه السلام) خدمة للتاريخ؟ ألم يكن هناك جدوىٰ من ثورته؟
الحكيم: ما هو رأيك في موقف الحسن (عليه السلام) إنّه لم يقم بثورة؟
الإمام: لو كان للإمام الحسن أنصار مثلما لديك، لثار. ولقد نهض بالأمر في البداية، ولمّا رأى أنصاره يبيعون أنفسهم وضمائرهم لم ينتصر، اما أنت فلك أنصار في كل البلاد الإسلامية.
=

في هكذا أجواء كان السيّد الصدر يتنفّس ويعيش، وكان ينظر إلى الأفق البعيد فلا يرىٰ سوىٰ غيوماً وسماءً تنذر بالكوارث، ولهذا كانت حياته سلسلة من الهموم المتّصلة، والمتعددة الجبهات، فهو يكتب للجيل الحائر والأجيال المقبلة ويرسي دعائم مشاريع ضخمة ويربّي النخبة التي قد تخلفه في زمن ما أو مكان ما؛ وفي خضمّ كلّ ذلك كان يتفادى الطعنات الغادرة من هنا وهناك؛ ليقف وحده وجهاً لوجه مع «عِجل» العراق.

كان الصدر يتطلّع إلى الشعب، ينظر وينتظر، وكان الشعب بدوره ينظر إلى الصدر وينتظر، ولقد أدرك الشهيد الصدر بعد ذلك أنّ الأُمّة تعيش ظروفاً كانت قد عاشتها قبل تاريخ ٦١ هـ لهذا أضحى الاستشهاد هاجسه الوحيد، وربما منذ إعدام البصري ورفاقه.

فهذا الإنسان العظيم لا يرىٰ قيمة لحياته إلّا بقدر ما يعطي لأُمّته من وجوده وحياته وفكره»[1].

= الحكيم: ولكنني لا أرىٰ من يتبعني لو أقدمت.
الإمام: إذا قمت بالثورة فأنا أوّل من يتبعك.
الحكيم: ابتسامة وصمت.

«كوثر» ج ١ ص ١٩٩
كتاب توثيقي حول مواقف الإمام الخميني.

(١) الصدر الشهيد في برقيته الجوابية للإمام الخميني بعد إعراب الإمام عن قلقه ازاء ما يجري في العراق.

وليس كلّ الناس يحرّكهم الفكر، بل هناك من لا يحرّكه إلّا الدم.

الحسين يولد من جديد

هل يعيد التاريخ نفسه حقّاً، فتعود سنوات القهر سنوات عجاف؛ تنسلخ الأُمّة فيها عن نفسها.. عن هويتها.. وعن ذاتها، فتغدو هياكل ميتة أو تكاد.

في غفلة عن التاريخ حيث المنعطفات الحادّة المظلمة يسطو أبناء الليل والظلام ليسرقوا وطناً ومجداً، فلا تجد من يرفع رأسه أو صوته. فالناس نيام أو عاكفون علىٰ عجل له خوار.

وحده الصدر كان يقاتل.. تسكن في أعماقه ثورة وتبرق في عينيه رؤىٰ كربلاء.. يوم كان الحسين (عليه السلام) يقاتل وحيداً وكانت الأُمّة تمجّد عجلاً اسمه يزيد، وكان على الحسين أن يُذبح ليوقظ بدمائه التاريخ والحضارة والإنسانية.

لا ينكر أحد انّ العراق وربما البلد الوحيد الذي يقدّس التضحية، انّه يقف مفتوناً أمام البطل وهو يقتحم الموت اقتحاماً وهو يكاد لهذا المشهد أن يفقد وعيه تماماً.

ولعلّها ظاهرة تاريخية أن تنتاب هذا البلد وهو يبحث في كلّ

عصر عن بطل ينوب عنه في التعبير عن عذاباته وآلامه وطموحاته.. يبحث عن فرد ينوب المجتمع العاجز عن التغيير ليقدّم أحد أبنائه إلى المذبح؛ من أجل أن ينوح عليه.. انّه لا يريد أن يدفع ثمناً ما، وهو الموت، فيبحث عمّن ينوب عنه في هذه المهمة.. حتى أمست البطولة في رأيه لا تعني شيئاً سوى الموت.

ومن المفارقات اننا نجد المجتمع وهو يبكي الحسين فانّه يشعر بالسعادة وهو يبكي من أجله بعد أن تبلغ التضحية أوجها بذبح الحسين في مشهد درامي فريد..

لهذا كان على أبطال الأُمّة إذا ما أرادوا التغيير أن لا يفكّروا بطريق آخر غير الموت، وكلّما كان المشهد قريباً من صورة كربلاء كانت الصدمة أكبر وسعادة الأُمّة بالبكاء أكثر...

أليس عجيباً أن يقول الصدر: ليس كلّ الناس يحرّكهم الفكر بل هناك من لا يحرّكه إلّا الدم.

ولقد شاء القدر أن يهب الصدر هذه البطولة بأروع صورها حتىٰ إننا نجد إلى جنبه شقيقته «آمنة» لتستلهم موقفاً زينبياً يوفّر للبطولة قدراً أكبر من التأثير.

إنّنا لا نستطيع مواكبة كلّ المسيرة الجديدة للاستشهاد، ولكن التأمّل في بعض محطاتها سوف يمنحنا رؤية لحقبة تاريخية شاء

القدر أن يكون الصدر بطلها الوحيد.

إنّ كلّ المؤشرات تشير إلى أنّ الصدر لم يكن متفائلاً إزاء مستقبل العراق وكان يدرك ان الشعب العراقي يعيش حالة تشبه إلى حدٍّ كبير الحقبة التي سبقت سنة ٦١ هـ حيث الحقّ مغلوب على أمره. وكان إعدام عارف البصري ورفاقه بعد محاكمة صورية تدلّل علىٰ أن البعث العراقي اختار البطش والقسوة مع التيار الإسلامي الذي يمثّل الوعي العميق لأُمّة مسلوبة الإرادة.

كان الصدر في مكتبته عندما وصله نبأ إعدام الشيخ عارف البصري[1] ورفاقه لمجرّد الرأي، وربّما يكون هذا الحادث وبالرغم من خطورته أوّل اختبار بعثي لإرادة الأُمّة التي سجّلت فيه أدنىٰ درجات الوعي وانعدام الإرادة.

كان الصدر يبكي بحرقة، فقال له تلميذه وهو يحاوره:

ـ إذا أنت تصنع هكذا فماذا نفعل نحن؟

أجاب الصدر وهو يكفكف دموعه:

ـ يا بني! والله لو أنّ البعثيين خيّروني بين إعدام خمسة من أولادي وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي.

---

(١) استشهد مظلوماً مع صحبه ومرّ الحادث بسلام ما عدا تجمّع طلّابي أمام «الطبّ العدلي» ما لبث أن تفرّق مذعوراً.

كان البعث العراقي قد بدا قدراً صارماً لا يمكن مواجهته، فكانت خططه التدميرية تنفّذ بقوّة ونجاح، وكانت الأُمّة تنسلخ من تاريخها وحاضرها ومستقبلها لتصبح ألعوبة بأيدي أوغاد قذرين.

كانت عجلة البعث تسير بقوّة، تسحق كلّ من يقف في طريقها.. حتىٰ أن الشعارات المرفوعة بدا فيها روح الاستفزاز واضحاً بل وكانت تبعث على القيء من قبيل: «جئنا لنبقىٰ».

وكان من المتوقع أن تسير الأمور على هذه الوتيرة، لولا حادث كبير وقع فأيقظ الجميع.. الأعداء والأصدقاء..

لقد انفجرت ثورة الإسلام وجاء رجل يحمل ملامح الأنبياء ليطيح بعروش الجبابرة. ويوم أعلنت طهران أنّها صوتُ الثورة الإسلامية في إيران، بدأ تاريخ جديد، واتخذ الصراع في العراق منحىً آخر اتّسم بتسارع الأحداث نحو مشهد لايقلّ بريقاً عن مشهد عاشوراء الحسين عليه السلام.

اشتعالات قبل الغروب

كانت انتفاضة الأربعين من صفر عام ١٣١٧ هـ ١٩٧٧ م أوّل صِدام عنيف بين الشعب والنظام. وفي غمرة تلك الحوادث الدامية

بات واضحاً لدى الطرفين أنّ الحسين ما يزال يقاتل في كربلاء، وانّ دمه الطاهر يهب الأحرار حماساً فريداً في الإقدام والتضحية والفداء. وكان للسيّد الصدر في تلك الحادثة موقفه الرائع في دعم الانتفاضة وتغذيتها بالروح، كأنّ روح الحسين تسكن في أعماقه، وكان من رأيه دعم المواكب الحسينية التي تتدفّق صوب كربلاء في موسم عاشوراء، لأنها الطريق الأمثل في بعث الروح الإسلامية وانبعاث الضمير المسلم من جديد، وكان يقول: «إنّ هذه المواكب شوكة في عيون حكّام الجور، وإنّها يجب أن تبقىٰ».

ان الفكر وحده مهما كان عميقاً فإنّه لا يخرج عن دائرة العقل، وإنّ التغيير المنشود يحتاج إلى العاطفة المتأجّجة.. العاطفة التي يمكن أن تشعل لهيب الثورات في العالم. من أجل هذا كان الصدر يتطلّع إلىٰ جدّه الحسين، يستلهم ذكراه ويحاول السير في خطاه؛ فالضمير المثقل بالخوف والإرهاب يحتاج إلىٰ عمل بطولي يحطّم حاجز الرعب، وقد قال الصدر من قبل: «لقد وضع البعثيون طوقاً من الخوف علىٰ رقاب الشعب العراقي وسأعمل علىٰ تحطيم هذا الطوق».

وبالرغم من عدم وجود الصدر في الواجهة إبان الانتفاضة، ولكن كان هناك ما يُشير إلى القلب النابض فيها كما تشير البوصلة إلى

القطب دائماً.

وإذا كان «ابن سعد» قد ظهر سنة ٦١ هـ كبيدق أُموي لتنفيذ أبشع مذبحة في التاريخ فإنّ عام ١٣٩٧ هـ شهد كلباً دنيئاً هو «أبو سعد» ليتولّى اعتقال السيّد الصدر واقتياده مخفوراً إلىٰ بغداد.

وفي بغداد تعرّض الصدر إلىٰ تعذيب نغول بغداد، وكان قرار الإعدام جاهزاً، فقد بات الصدر نقيضاً للبعث حيث وجود أحدهما يعني فناء الآخر.

وقد كشّر البعثي القذر عن أنياب تنزّ صديداً وخاطب الصدرَ بلهجة مليئة بالتهديد والوعيد:

ـ إننا نعلم انّك وراء هذه الأعمال العدوانية، ونعلم انّك قدّمت لهم الأموال، لكننا نعرف كيف ننتقم منك في الوقت المناسب. لولا انشغالنا بالقضاء علىٰ هؤلاء (المشاغبين) لنفذّنا الإعدام الآن! ولكن سترىٰ بعد حينٍ مصيرك.

لقد وقع الحادث قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران بعامين تقريباً، ولمّا حدث الزلزال الإيراني، برز الصدر متقلّداً سيف جدّه الحسين؛ برز لوحده يقاتل نظاماً دموياً مجهّزاً بكلّ وسائل القمع والموت والدمار. ونظام البعث يمثّل ذروة الوحشية.. نظام لا يتورع «الشرطي الأوّل» فيه حتىٰ عن أكل رؤوس الأطفال.

وهكذا انتخب الصدر طريقه العجيب.

ولعلّ الأُمّة في العراق كانت تحلم بالبطل الجديد.. البطل الذي سيقدّم ثمن البطولة وهو الموت.

الشرارة الأولى

أذاعت طهران نصّ البرقية التي بعث بـها الإمـام الخـميني إلى السيّد محمّد باقر الصدر، حيث عبّر الإمام عن قلقه البالغ إزاء ما أُشيع عن نيّة الصدر في مغادرة العراق. وفيما يلي نصّ البرقية:

سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الحـاج السـيّد مـحمّد بـاقر الصدر دامت بركاته.

«علمنا انّ سماحتكم تعتزمون مـغادرة العـراق بسـبب بـعض الحوادث. انني لا أرىٰ من الصالح مغادرتكم مدينة النجف الأشرف، مركز العلوم الإسلامية، وإنّني قلق من هذا الأمر، آمل إن شاء الله إزالة قلق سماحتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وبالطبع لم يتسلّم الصدر نصّ البرقية ولكنّه أصغىٰ إلى شـريط مسجّل عن الإذاعة.

وقد بعث الإمام الصدر ببرقية جوابية معلناً فيها وبشكل واضح انتخابه الطريق الصعب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمىٰ الإمام المجاهد السيّد روح الله الخميني دام ظلّه

تلقيت برقيتكم الكريمة التي جسّدت أبوّتكم ورعايتكم الروحية للنجف الأشرف الذي لا يزال منذ فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة. وإني أستمدّ من توجيهكم الشريف نفحة روحية، كما أشعر بعمق المسؤولية في الحفاظ على الكيان العلمي للنجف الأشرف، وأودّ أن أُعبّر لكم بهذه المناسبة عن تحيات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز، الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد على يدكم ضوءاً هادياً للعالم كلّه، وطاقة روحية لضرب المستعمر الكافر والاستعمار الأمريكي خاصّة، ولتحرير العالم عن كلّ أشكاله الإجرامية، وفي مقدمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدّسة فلسطين، نسأل المولىٰ سبحانه وتعالى أن يمتّعنا بدوام وجودكم الغالي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٥ / رجب / ١٣٩٩

وجاءت هذه البرقية الجوابية لتنهي حالة الترقّب التي كانت تسود الأجواء.

الوفود

تدفّق آلاف العراقيين إلى مدينة النجف الأشرف للتعبير عن تضامنهم مع الإمام الصدر. وبالرغم من كثافة الوفود التي غصّت بها المدينة الصغيرة فإنّها لا يمكن أن تعبّر عن إرادة أُمّة بقدر ما تعبّر عن ضمير أُمّة ضعيفة مسلوبة الإرادة.

وما أشبه الليلة بالبارحة. فالحسين (عليه السلام) يتسلم آلاف الرسائل من الكوفيين التي تعبّر عن محتوىً واحد وهو ان لا إمام لهم سواه. فالرسائل لم تكن تعبّر عن إرادة أُمّة اختارت معاوية في صفين ثم بايعت يزيد من بعده. إنّها تعبّر عن ضمير وطموحات أمّة تجاه المنقذ الذي يمكن أن يقاتل بالنيابة عنها، وإلّا «فما لها والدخول بين السلاطين».

إنّ النخبة وحدها هي التي عبّرت عن ضمير الأُمّة. امّا الإرادة فإنّها في الجانب الآخر من المعادلة؛ القلوب مع الحسين والسيوف عليه.

ومرّة أُخرىٰ تجسّدت هذه المعادلة لتكون القلوب.. كلّ القلوب مع الإمام الصدر، امّا الإرادة فمع جلّاد بغداد وعجل العراق. وحتىٰ

ملفّ التحقيق مع الإمام الصدر يشير إلى هذه الحقيقة، فقد ورد سؤال يعبّر عن روح التسلّط حول ما جاء في البرقية الجوابية.

ـ من خوّلك نقل تحيّات ملايين العراقيين إلى السيّد الخميني؟

فالنظام يعترف لا شعورياً بضمير أُمّة ترنو بأمل إلى ما حصل في إيران؛ لهذا استنكر النظام ـ فقط ـ التعبير عن هذا الطموح بعمل إرادي حتىٰ علىٰ مستوى الكلمات.

لحظات الغروب

لقد سجّل التاريخ عام ٦١ هـ علىٰ شواطئ النهر بكربلاء قصّة أولئك النفر من جيش يزيد كيف كانوا يبكون وحدة الحسين (عليه السلام) وكانوا يتضرّعون إلى الله أن ينصره!.. إنّها قصّة الضمير المسلوب الإرادة.

هكذا كانت النجف وهي ليست عن كربلاء ببعيد.. حالة مدمّرة من الترقّب وا نتظار المعجزة.

بدت المدينة الصغيرة ذلك المساء من يوم الاثنين السادس عشر من رجب ١٣٩٩ حيث التاريخ الهجري على أعتاب قرن جديد .. بدت موحشة. ذئاب الليل تنتشر هنا وهناك، واستعدّ الصدر للبلاء،

وكانت إلىٰ جانبه شقيقته آمرأة تحمل ملامح زينب (عليها السلام) في كلّ شيء.

العيون الزجاجية مفتوحة ترقب منزلاً صغيراً أوىٰ صاحبه إلى النوم آمناً مطمئناً، والعالم من حوله يموج بالغدر.

انطوى الليل واستيقظ الفجر كئيباً رمادي اللون وجاء زوّار الفجر.

قال رجل الأمن وهو يلوك الكلمات بصفاقة:

ـ السادة المسؤولون في بغداد يريدون الاجتماع بكم في بغداد.

أجاب الإمام بانفعال:

ـ إذا كنت تحمل أمراً باعتقالي فنعم أذهب، وإن كانت زيارة فلا.

وأضاف بألم:

ـ إنّكم كممتم الأفواه وصادرتم الحريات، وخنقتم الشعب، تريدون شعباً ميّتاً، يعيشُ بلا إرادة ولا كرامة، وحين يعبّر شعبنا عن رأيه أو يتّخذ موقفاً من قضية ما، حين تأتي الألوف لتعبّر عن ولائها للمرجعية وللإسلام، لا تحترمون شعباً ولا ديناً، ولا قيماً، بل تلجأون إلى القوّة، لتكمّوا الأفواه وتصادروا الحريات وتسحقوا كرامة الشعب.. أين الحرية التي تدّعونها!!

لاذ رجل الأمن بالصمت.. الصمت الذي يعبّر عن لا شيء وعن

كلّ شيء.

هل فوجئ البعثي بموقف لم يتوقّعه.. لقد رأىٰ أُمّة بأسرها تركع، وها هو يشهد تمرّد فرد واحد يعبّر عن كرامة شعب سحقت تحت الأقدام؟

وغادر موكب عجيبٌ البيت المتواضع الذي بدا في ذلك الفجر الرمادي شيخاً ينتحب بصمت.

حلمات منقوعة بالنار

الطريق المؤدي إلى شارع «زين العابدين» هو مجرّد خطى معدودة في حساب الجغرافية. أما التاريخ فله حساباته التي لا تختلف عن الجغرافية فحسب، بل وقد تتناقض معها في بعض الأحيان.

أصحاب العيون الزجاجية (الغرباء) منبثون في الزوايا هنا وهناك، وفي أيديهم رشاشات الكلاشنكوف، يريدون أن يوقفوا عجلة التاريخ.

فبدت ذلك الفجر حيّات وأفاعي تنظر من خلال فوّهات مدهوشة إلىٰ رجل يحمل في وجهه ملامح موسى بن عمران (عليه

السلام) وفي عينيه بريق الحسين (عليه السلام).

كانت «آمنة» تستلهم «زينب».. تستلهم صبرها وشجاعتها وهي تخطو إلىٰ حيث احتشد الذئاب.

ووقفت آمنة في مواجهة نظام مدجّج بالسلاح، ووقف التاريخ يصغي إلىٰ كلمات منقوعة بالنار، مضمخة بصهيل كربلاء:

ـ انظروا! أخي وحده بلا سلاح.. بلا مدافع ورشاشات.. أما أنتم بالمئات..

وهتفت وهي تشير إلى عشرات «الغرباء»:

ـ انظروا.. أنتم بالمئات.. هل سألتم أنفسكم لِمَ هذا العدد الكبير وكلّ هذه الأسلحة؟ لأنّكم تخافون، ووالله لولا ذلك لما جئتم لاعتقال أخي في هذه الساعة من الفجر..

وأطلقت صرخة مدوّية:

ـ لماذا لا تجيئون إلّا والناس نيام؟.. لماذا تختارون هذا الوقت هل سألتم أنفسكم؟

هناك لحظات يتحوّل فيها الصمت إلىٰ حديث هو أبلغ من كلّ الأحاديث.. لغةٌ عجيبة.

كان الصمت يغمر المكان تماماً، وكانت العيون الزجاجية ترقب امرأة عجيبة كأنّها ليست من بنات حوّاء.. سيّدة من سيّدات التاريخ،

ما زال التاريخ يردّد كلماتها وهي تخاطب أخاها في قبضة الجلّادين:

ـ اذهب يا أخي.. الله معك فهذا هو طريقنا وهـذا هـو طـريق أجدادك الطاهرين.

عادت آمنة إلى المنزل.. كأنّها تعود إلى قـلعة مـهجورة، فـيما رحل الرجل الذي اختار طريق الحسين (عليه السلام)..

قال رجل يخشى الموت ويشفق منه على «آمنة»:

ـ أما كان من الأفضل أن تتريثي. كلماتك الثائرة تبشّر بالخطر، سوف يفتحون لك صفحة جديدة في سجلاّتهم.

أجابت «زينب هذا العصر»:

ـ ان ديني يدفعني لاتخاذ هذا الموقف.. لقد انتهىٰ زمن السكوت .. ولابدّ لنا أن نفتح صفحة جديدة من الجهاد.. لقد سكتنا طويلاً.. وكلّما طال سكوتنا، كبرت محنتنا. لماذا أسكت وأنا أرىٰ مـرجـعاً مظلوماً في قبضة هؤلاء المجرمين.

قال الذي أشفق من الموت: ولكنّهم قد يعدمونك. فهم مجرمون.

قالت آمنة وفي قلبها دوي من كربلاء:

ـ والله! إنّي اتمنّى الشهادة في سبيل الله.. منذ يوم «الوفود» وأنا أتمنىٰ ذلك أنا أعرف هذه السلطة وأعرف وحشية هؤلاء وقسوتهم.. الرجل عندهم والمرأة سواء.. أما أنا فسيّان عـندي أن أعـيش أو

أموت ما دمت واثقة من أنّ موقفي كان لله ومن أجله.

آمنة تتحدّث بلغة عجيبة.. لغة لا يفهمها إلّا قليل من العالمين. من أجل هذا بقيت وحيدة إلّا من بعض المشفقين.

وكان علىٰ «آمنة» أن تفعل شيئاً.. لقد ولدت زينب.

أشرقت الشمس.. شمس يوم الثلاثاء.. حزينة كعين تنتحب، أو جمرة متوقدة تبشّر بالثورة..

حثّت «آمنة» الخطىٰ نحو مرقد جدّها العظيم... علي.. عليّ الذي قال مرّة وهو علىٰ شاطئ الفرات بصفين:

ـ الموت في حياتكم مقهورين.. والحياة في موتكم قاهرين.

كلّ شيء كان هادئاً داخل الضريح حيث يرقد بطل الإسلام الخالد عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كأنّه عاد توّاً من صفين أو النهروان.. كلّ شيء كان هادئاً سوىٰ تمتمات الدعاء من شفاه المؤمنين.. أو تأوّهات المظلومين...

وجاءت «آمنة» تتوشّح عزم زينب (عليها السلام).

ـ ياجدّاه! لقد اعتقلوا ابنك الصدر.. فإلى الله المشتكىٰ!

والتفتت إلىٰ ثلّة من أُمّة نائمة.. علّها تستيقظ.. تهبّ من نومها فتتذكر بيعة قديمة للحسين.

كلّما ادلهمّت الخطوب، أو قسى الزمان.. وكلّما ظهر يزيد يعيث

في الأرض فساداً، تطلّعت القلوب إلى رجل يدعى الحسين، وإلىٰ حفيده الذي يأتي في آخر الزمان.. يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وهكذا شهد «الحرم الطاهر» أوّل تجمّع يستنجد «بالمهدي الموعود»، فلقد امتلأت الأرض ظلماً وجوراً وفساداً.

كثيرون هم الذين يتصورون أن «المهدي» من اختراع «الشيعة» فهذه الطائفة من البشر مظلومة عبر التاريخ، لم يعيشوا بسلام أبداً، مقهورون أين ما حلّوا. لهذا ركنوا إلىٰ من سيخلّصهم.. إلى من يمنحهم الأمن والطمأنينة والسلام. والمهدي منحهم ذلك الشعور، فناموا على القهر. كلاّ.. المهدي ليس اسطورة وإن حيكت حوله الأساطير. المهدي رجل من ولد الحسين.. علويّ ثائر.. مطلوب من كلّ حكومات الدنيا.. من كلّ طغاة التاريخ. ينتظره المعذّبون.. في كلّ زمان ومكان. انّه الأمل، والأمل أعظم شيء يملكه الإنسان.

من أجل هذا اجتمع المؤمنون في حرم الإمام عليّ (عليه السلام) يهتفون باسم المنقذ المنتظر.

من أجل هذا ينهضون كلّما ذكر المهدي.. حركة أشبه بالرمز تعبّر عن الإرادة والاستعداد للثورة تحت لوائه (عليه السلام)... يضعون أكفّهم فوق رؤوسهم تحية مباركة طيبة للثائر الأخضر.

يوم الثلاثاء.. يوم طويل.. من أيام الله.. لقد استيقظ الضمير المثقل بالخدر.. أيقظته صرخة لها صدىً زينبي؛ وكانت انتفاضة رجب بكلّ زخمها الشعبي صدىً لصرخة هذه السيّدة العظيمة.

خرجت تظاهرة في النجف.. تندّد.. تهتف باسم الصدر.. بحسين العصر. وخرجت تظاهرة في الكاظمية (مدينة الميلاد) ومثلها في «الخالص» من أرض ديالىٰ، وتظاهرة في مدينة «الثورة» خاصرة بغداد عاصمة «السفّاح».

كان «الصدر» أسيراً في قبضة المغول من نغول بغداد. العيون الزجاجية تبرق حقداً وشتائم بذيئة كلعاب الأفاعي تنفلت من الأفواه الكريهة.

وجاء «البرّاك» يحمل سيف الشمر، وكان كلّ شيء ماثلاً.. والجريمة وشيكة. الجميع ينتظرون لحظة الذبح. حتى الإمام الصدر كان هو الآخر ينتظر ميلاده الجديد.. ميلاده كشهيد. سوف تتدفّق دماؤه حمراء.. حمراء.. تمتزج بمياه الرافدين.. وعندها سيهبّ النائمون وتحدث المعجزة. هكذا علّمه الحسين (عليه السلام).

كان سيف الشمر علىٰ وشك الانقضاض عندما جاء رجل من أقصىٰ المدينة يسعىٰ.

قرأ البرّاك ورقة صغيرة. تراجع الذئب المتحفّز في الأعماق.

اختبأ وراء قناع لحمل وديع.

أخفت الأفاعي أنيابها.. ألسنتها المشقوقة وحاولت أن تبتسم لرجل أسير في يده عصا موسىٰ وفأس إبراهيم (عليهما السلام).

وفكّر الصدر لحظة ربّما حدثت المعجزة واستيقظ الشعب. ها هو يصغي إلى صهيل فرس غاضبة تقاتل في كربلاء تدفع عن فارسها غائلة السيوف الغادرة.. تمرّغ ناصيتها بالجراح النازفة.

وعاد الصدر إلى النجف وهو أكثر تصميماً وعزماً على المضي في طريق الحسين.. طريق قلّ سالكوه.. طريق مصبوغ بدماء الأنبياء وتنتصب علىٰ جانبيه أعواد المشانق.

هاجس عاشوراء

لعلّ شيعة العراق هم وحدهم الذين يدركون هواجس الإمام الصدر وهو يتحدّث عن لغة الجراح وموت الشهادة؛ فهذا الرجل أدرك نفسه ودوره، وأدرك الظروف التي تحيطه، وشمّ في الأُفق رائحة الحسين وأصغىٰ إلىٰ صهيل جواده، وإلىٰ صوته وهو يشحذ سيفه عشية عاشوراء..

ولقد سمعه العديدون وهو يتمتم قائلاً: «العراق بحاجة إلى دم

كدمي».

وإذا كان قرار البعث هو إعدام الصدر أو اغتياله، فإنّ ذلك يعود إلىٰ تصميم الإمام نفسه على الشهادة.. فالشهادة لدى الشيعة انتصار، والموت الأحمر في نظرهم خلود أخضر.

لا أحد يدري متى ولد الحسين في أعماق الصدر ومتى أضحت كربلاء هاجسه الوحيد... ولكن من المؤكد ان شقيقته آمنة هي الإنسان الوحيد الذي أدرك ما يعتمل في ذلك القلب الكبير، وأدركت انّه يحتاج إلى زينب.. لهذا تشربت آمنة زينبَ ومضت معه في ذات الطريق العجيب الذي انتخبه أخوها العظيم.

في فترة مبكّرة كان الإمام الصدر يعيش هاجس كربلاء، وكان يردّد أمام بعض تلامذته ذلك قائلاً: إن الأُمّة مبتلاة اليوم بذات المرض الذي أُبتليت به في زمن الحسين، وهو فقدان الإرادة فالأُمّة تعرف حزب البعث ولا تشكّ في طبيعة الحاكمين في العراق.. لا تشكّ في فسقهم وفجورهم وفي طغيانهم وظلمهم.. ولكنّها فقدت إرادتها..

إنّ علينا أن نعالج هذا المرض بذات الخطوة التي قام بها الحسين (عليه السلام)؛ وهي التضحية الكبرى التي هزّ بها المشاعر وأعاد دماء الحياة إلى عروق الأُمّة من جديد.

ويبدو ان الفكرة قد اختمرت في ذات الإمام الصدر حتىٰ لم تعد إلاّ خطوات يقطعها إلىٰ مسرح كان قد عيّنه من قبل، وهو الصحن الطاهر لبطل الإسلام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام).

عندما نفتش في زوايا التاريخ؛ نقلّب صفحاته السوداء والبيضاء والصفراء، فإننا نجد في هذه البقعة أو تلك من دنيا الله.. في هذا العصر أو ذاك من نهر الزمن المتدفّق ثلّة تجتمع تحت جنح الظلام على ضوء القناديل أو الشموع أو المصابيح الخافتة؛ تتهامس لقلب نظام حكم ما، أو الإطاحة بعرش أو دولة.. تخطّط للهجوم.. للثورة والانتصار، وهي في كلّ ذلك تتمنىٰ النصر والغلبة والسيطرة.

امّا أن يجلس إنسان أعزل وحيد يخطّط لذبحه ليتدفّق دمه في مكان ما أُعدّ له من قبل، فهذا لم يحدّث به التاريخ أبداً، إلّا أن نقول ان الحسين قد اختار كربلاء ليذبح وينتصر. وإذا كان ذلك كذلك فإنّ الصدر سيكون ابن الحسين وتلميذه الأوحد عبر التاريخ.

وهكذا تكلّم الصدر.. بلغة الجرح.. لغة عجيبة تستمد أبجديتها من شاطئ الفرات بكربلاء.. فيها دماء قانية.. وصهيل.. وفيها إباء وفيها ما يشبه الجنون، خاصّة لدىٰ «العقّال» من العالمين!

ولكن ما الذي منع الصدر من تنفيذ فكرته. مَن الذي حال دون إتمام وعده؟

لقد عاش الصدر في زمن عـجيب له مـقاييسه «المأسـلمة»..
مقاييس ليست من الدين في شـيء؛ حـيكت لتكـون ثـوباً يسـتر «العورة».

أرسل الصدر من يجسّ له «الضغط» والحرارة، فـي المـدينة، فألفاها الرسول «ترتجف» لمجرّد «التسفير» وعاد بخفي حنين.

يمّم الصدر صوب الخميني الرجل الوحيد الذي يفهم لغة الصدر.

أصغىٰ الإمام لحديث عجيب وهزّته الكلمات الثائرة تنساب مع الجراح.

يا لهول المشهد. الصدر يخطب فـي أُمّـة مـن النـاس. يـقاوم ويهاجم، ثم يسقط شهيداً تتدفّق دماؤه طاهرة تـلّون الأرض بـلون الشفق.

سكت الصدر وظلّ الخميني مطرقاً برأسه ترى ماذا سـيقول...
وبعد صمت مدوٍ تمتم الإمام:

ـ لا أدري!!

ان المرء لن يتوقع جواباً أبلغ من هذا، فيه حزن الأنبياء.. انّـه يدري ويقول: لا أدري.

ونهض الصدر ينوء بثقل الرسالة.

مضت أيام على احتجاز الإمام الصدر وحالة من الترقّب تسود الوطن، وقد بدأ البعث هجومه على «الأجنحة». وتساقط الشـهداء من صحبه. ها هي كربلاء تتجسّد من جديد. انّها لم تعد بقعة صغيرة على شواطئ الفرات. إنّها تشمل كلّ العراق.. كـلّ أرض الفـراتـين. والصدر يراقب مصارع الرجال، فتتجمّع الدموع في عينيه وهو يرمق السماء.. يشكوها ويلات الأرض ويتضرّع: «إلهي بـحقّ أجـدادي الطاهرين الحقني بهم».

وذات يوم..

كانت الشمس ترسل أشعّتها في ظهيرة لاهبة، والزقاق الذي فيه منزل الصدر يسوده الوجوم والخوف.. وقد تربّص فيه الغدر، فرجال الأمن مبثوثون هنا وهناك يرقبون كلّ شـاردة وواردة.. يـحاصرون قلعة عجيبة فيها رجل أعزل لا يملك من دنياه سـوى قـلب يـنبض بالحبّ.

لقد أدرك أعداؤه انّ هذا القلب قنبلة مدمّرة يـوشك أن تـنفجر لتحيل قصورهم أنقاضاً.

كان «رجال الأمن» يضيقون ذرعاً بما هم فيه، يتصبّبون عرقاً وهم منشدّون إلى أماكنهم كالمسامير..

وكان القلب الذي ينبض للأُمّة ينبض لهم لأنّهم أبـناء عـاقّون، وفي كلّ الأحوال هم أبناؤه، وهتف الصدر:

ـ اسقوهم ماءً.

ـ يا سيدي إنّهم أعداؤك الذين يحتجزونك.. لقد بثّوا الذعر في قلوب أبنائك.

ـ يابني، هـؤلاء يسـتحقون الرحـمة. انّـهم لم يـجدو ظـروفاً تساعدهم ليكونوا طيبين. لم ينبتوا في بيئة مسلمة. ولو خلّوا وطبعهم أو وجدوا البيئة الصالحة لكانوا مؤمنين.

لو دققت النظر في الصحراء قريباً من كربلاء لرأيت الحسين يأمر أصحابه أن يقدّموا الماء لألف فارس جاءوا لقـتله كـانوا ظـامئين، فسقاهم الحسين وسقىٰ رجالاً وخيولاً أغـارت عـليه فـي الظـهيرة العظمىٰ ومزّقت قلبه الدافئ. انّه التاريخ يعيد نفسه كما تُعيد الشمس كرّتها من نقطة الانقلاب.

رسالة

وذات مساء وصلت رسالة.. فيها دنانير بسيطة بساطة الشـعب

الذي يعبّر عن نفسه على الطبيعة.

سيدنا..

نحن لا نصلّي ولا نصوم..

لكنّا نراك مظلوماً، وهؤلاء البعثيون ظلموك.

وقد جمعنا هذا المبلغ البسيط نرجو منك قبوله..

لأنّك محجوز ومحتاج.

انشاء الله نأتي غداً.. في الساعة الثالثة بعد الظهر.

ونقتل هؤلاء المجرمين الذين يحتجزونك.

وجاء الغد يحمل شمساً جديدة. وقبل الموعد بدقائق،

كان الصدر يترقّب أبناءه؛ ترى هل سيفون بالوعد.

دقت الساعة الثالثة وظهر في أقصى الزقاق ثلاثة رجال ملثمين وثلاثة في أسفله، واشتعلت المعركة..

كانت عينا الصدر تبرقان أملاً وهو يشهد معركة الشعب مع الجلاّدين، فتمتم:

ـ الإسلام يحنّ حتى إلى هؤلاء.

واختفى المشهد الفريد باختفاء الرجال.

وهاهو الصدر يتشرّب درساً من كربلاء. لقد علّمه الحسين (عليه السلام) كيف يكون مظلوماً فينتصر.

وبين الفينة والأُخرىٰ كانت تأتي مبالغ من المال من الذين آمنوا.

وكان الصدر يرفض ذلك. فقيل له ألا تـقبلها؟ ألست مـحتاجاً يا سيدي وأيام الاحتجاز مريرة وربما تطول؟

ـ لقد رحل والدي في تلك الليلة، وما ترك لنا شيئاً نقتات بـه. فبقيت مع والدتي وأخي المرحوم اسماعيل وآمنة دون عشاء...

وأنا الآن ليس بيني وبين لقاء ربّي إلاّ أن يأتي هؤلاء ويقتلونني فأنتقل إلىٰ جوار أجدادي.. فلِمَ أدّخر المال؟!

إنّ ما قام به الإمام الصدر لا يخضع لمـنطق السـياسة، ولا إلى أساليب الصراع. وسيبقىٰ ذلك العمل جنونياً إذا تجرّد عن عالم الغيب وعن بريق كربلاء.

فرجل مثل الإمام لا يمكن سبر أغواره وهو يـتحدّث بـلغة لا تسـتمد أبـجديتها مـن عـناصر التـراب والأرض، لكأنّـها مكـتوبة بالدماء.. دماء الأنبياء.

لاءات في زمن الذلّ

لم يقل فرعون (أنا ربكم الأعلىٰ) إلّا بعد أن وجد من يسجد له ويـمجّد اسـمه، ولم يـوجد الاسـتعمار إلّا بـعد أن سـبقته قـابلية

للاستعمار، ولم تظهر النظم الدكتاتورية إلّا في المجتمعات الخائفة المهزومة من الأعماق.

ان البطش البعثي لم يولد من العدم. لم يظهر من الفراغ لولا وجود أرضية تضجّ بالخنوع والذلّ والعبودية.

ولم يكن صدّام سوىٰ انعكاس لمجتمع مثقل بالضعة، وخلاصة لعصر الانحطاط.

ومن هنا يبرز موقف الإمام الصدر كبطولة نادرة المثال إذا ما وضعت في ظروفها المريرة التي لا يمكن تصوير أهوالها.

وعندما تركع أُمّة بأسرها، فإنّ تمرّد فرد واحد سوف ينتزع الإعجاب.. إعجاب الأصدقاء والأعداء معاً.

ومن أجل هذا تكلم رأس يحيىٰ، وتحدّث رأس الحسين. ومن أجل هذا ما يزال الصدر في ذروة الحضور رغم غيابه.

في الظهيرة وقبل اسبوع من الكارثة، جاء رجلان «خاقاني» و«تكريتي».. جاءا من عند «النمرود» الذي يقول:

ـ أنا أُحيي وأُميت!

جاءا يخوّفان رجلاً لا يعرف ما هو الخوف. جاءا يخوّفانه بالموت؛ والموت لم يعد لديه منيّة بل أُمنية.

جاءا يمنيانه بالحياة.. وما أتفهها في زمن الذلّ.

قال «الخاقاني» بعد حديث طويل:

ـ لقد جئتك من عند صدام، أحمل معي خمسة شروط هي خمسة طرق للحياة، وسادسها الموت. فاختر لنفسك أحدها:

ـ أن تتخلّىٰ عن تأييد الثورة في إيران وعن الخميني.

ـ ان تصدر بياناً تؤيد فيه بعض مواقف الحكومة حتىٰ لو كان ذلك حل المسألة الكردية أو تأميم النفط.

ـ إصدار فتوىٰ بتحريم الانتماء إلىٰ حزب الدعوة.

ـ إلغاء فتوىٰ حرمة الانتماء إلى حزب البعث.

ـ اجراء مقابلة مع مراسل صحيفة أجنبية أو عراقية والإجابة علىٰ مسائل فقهية عادية.

قال الصدر وقد تأهّب للرحيل:

ـ فإذا لم أستجب؟

ـ كما قلت لك يا سيّدنا والله لقد سمعت صداماً يقول: سوف أعدمه. قال الصدر:

ـ انّ كل ما كنت أطمح إليه في الحياة هو أن تقوم حكومة للإسلام في الأرض، ولقد تحقق ذلك. والآن فإنّ الموت والحياة عندي سواء.

امّا التأييد لبعض المواقف فلا.

واما حزب الدعوة فلا أُحرم الانتماء اليه.

واما حزب البعث فلا أُجيز الانتماء اليه.

واما المقابلة فلا.

والتفت الصدر إلى رجل تكريتي أذهلته لاءات عجيبة.

ـ أخبر صداماً انّه في أي وقت يريد إعدامي فليفعل.

العراقيون وبعض سكّان شرق المتوسط يعرفون ماذا يعني «رجل الأمن». إنّه ذئب في أهاب إنسان، وحش بشري له عيون زجاجية وقلب منحوت من ثلوج سيبريا. في أعماق هذا المخلوق المخيف يوجد انسان ضيئل مغيب في ظلمات مقيّد بالسلاسل والأغلال.

ترىٰ كيف تمكّن الصدر وفي لحظة أن يحطّم أنياب الذئب، وان يحرّر الإنسان في الأعماق المظلمة لتدمع العينان الزجاجيتان.

لو كانت هناك أجهزة يمكنها رصد ما يجري في أعماق النفوس لسجّلت انهيارات مدوّية ولسمعت أصداء الأنقاض وهي تتراكم بعضها فوق بعض.

هتف التكريتي وهو يبكي:

ـ حيف والله حيف.

ونهض ليقبّل يداً تشير إلى طريق لا يسلكه أحد من العالمين.

رؤيا

عندما يغمض المرء عينيه عن الدنيا، فإنّهما تنفتحان علىٰ عالم آخر.. عالم لا يمتّ إلىٰ هذا العالم بصلة، وتشتدّ درجة الرؤية، حتىٰ لتصل احياناً مرحلة الشهود الكامل وكشف الغطاء، فإذا البصر حديد.

لقد أزفت ساعة الرحيل، وهذه إشارة من العالم الآخر. وقال الصدر:

رأيت «اسماعيل» و «آل ياسين» جالسَين وبينهما كرسيّ خالٍ هو لي، وكان هناك ملايين الناس ينتظرون.

وتمتم الإمام وهو يروي رؤياه:

ـ وأنا أبشّر نفسي بالشهادة.

جريمة في بغداد

اهتزّ العراق من أقصاه إلى أقصاه إثر سقوط أعتىٰ عروش الشرق الأوسط، ونجاح الثورة الإسلامية، وبدا الشعب العراقي يهتزّ طرباً علىٰ أناشيد حماسية.. هنا طهران صوت الثورة الإسلامية.

ومنذ ذلك التاريخ شهد العراق تغيّرات كبرىٰ.. جاءت سريعة ومثيرة.

فقد تمّت تنحية البكر عن الرئاسة.. وظهور صدام الحاكم المطلق... ولم تكد تمضي أسابيع حتى استيقظ الشعب العراقي علىٰ مسلسل الإعدامات الجماعية التي بدأت بشخصيات حزب البعث ممّن تشمّ منهم رائحة الاستقلال.. إنّها إرادة النمرود الذي يزعم: انّه يُحيي ويُميت. وفي آب تساقطت رؤوس واحد وعشرون بعثياً.. وظهر صدام كوحش مصّاص للدماء، وسُمِعَ يقول: والله لو وقفت زوجتي وأبنائي في طريقي لأذبتهم بالتيزاب!

وبدأ عصر الرعب، وانتشرت رائحة الدم، وسادت ظاهرة ارتداء ثياب الحداد؛ والشباب المسلم يساق إلى أعواد المشانق زرافات زرافات..

وإذا كان معاوية يدسّ السمّ في العسل ويقتل معارضيه، فإنّ جلاّد بغداد بدأ يضع سمّ الفئران في اللبن. وكان الذين يطلق سراحهم من السجن يموتون بين ابنائهم وأهليهم، بعد أن ضجّ الجلّادون من حدّة الإعدامات.

وفي هذا الزمن قال الصدر: لا.

لقد تضاربت الروايات حول الطريقة التي تمّت فيها تصفية الإمام

ولكن هناك ما يشبه الحقيقة.. وهي أن صدّام لم يكن يتصوّر ان يقف في طريقه أحد؛ لهذا أراد أن يتأكّد بنفسه، فاستدعى الإمام إلى القصر الرئاسي وكان هناك طريقان.. إدانة الثورة في إيران أو الموت، ولم يتردّد الإمام الصدر في الاختيار.

سأل الوحش: أي نوع من الموت تختار؟

فقال الإمام:

ـ أن أُذبح كما ذُبح الحسين.

ولكن صدّام كان يجهل مهنة جدّه الشمر، فأمر بقتل الإمام رمياً بالرصاص.

وخلع الإمام عمامته لمجابهة رصاص الجلّادين، وقام النمرود بإطلاق الرصاص، وقتل الإمام.

الذين يعرفون سادية صدام يدركون الأهوال التي تعرّض لها الصدر قبل أن يستشهد. لقد أراد يزيد الجديد أن يقهر الحسين الكامن في الأعماق، فاستخدم ألوان التعذيب. ولكن الروح العظيم كان يشتدّ صلابة وعنفواناً. ولقد حانت لحظة الخلاص.. الخلاص من ويلات الأرض، وولوج العالم الآخر.

إنّ أحداً لن يحيط أو حتىٰ يدرك سرّ الإنسان وهو يتأهّب لدخول ملكوت السماء؛ وهؤلاء الذين شهدوا اللحظات الأخيرة قبل

مصرع الإمام وقد اعترتهم الرجفة ـ رغم ولوغهم في الدماء ـ قد رأوا شيئاً جعلهم يعجزون عن تنفيذ الجريمة فنفّذها صدام.

«وكان قتل الإمام الصدر يعني أنّه لم يعد هناك حياء، ولم تعد هناك حدود، ولم يعد هناك معقول ولا معقول، ولم يعد هناك ما تتوقعه وما لا تتوقعه.. كلّ حرمات الشعب العراقي مستباحة ومهتوكة تحت سنابك حصان الغازي صدام»[1].

أرأيت كيف يعيد التاريخ نفسه؟ اصغ إلى السبط وهو يسبر الآفاق في عاشوراء:

ـ يا أُمّة السوء بئسما خلفتم محمّداً في عترته. أما إنّكم لا تقتلون رجلاً بعدي فتهابون قتله بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إيّاي.

ولقد صدقت نبوءة ابن النبيّ فاجتاحت جيوش يزيد المدينة وقتل صحابة كانوا حول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وانتهكت ألف عذراء..

وبعد مذبحة الحرّة حوصرت مكّة وقصفت الكعبة بالمجانيق وأُحرقت، فلم يعد هناك حياء.

---

(١) يوميات بغداد صافي ناز كاظم.

وأعقب مصرع الصدر خوف ورعب، ونُفّذت إعدامات جماعية، وباتت كلّ الأُسر العراقية خائفة تترقّب.

وإذا كان يزيد قد اجتاح المدينة وأهلك الحرث والنسل وحاصر مكّة وأحرق بيت الله الحرام، فإن صدّام بدأ عدوانه الشامل ضد إيران.. إيران الخميني التي أعلنت نفسها دولة من دول المواجهة مع إسرائيل.

وكان الغزو البعثي بداية لسلسلة من المآسي ما تزال مستمرة حتى اليوم.

ان اللحظة التي اعتلىٰ فيها الشمر صدر الحسين هي لحظة رهيبة تزلزلت لها الأرض، ومطرت لها السماء دماً عبيطاً.

الإنسان هو جزء من الكون إذا لم يكن خلاصته كلّه، وإن كلّ ما يجري في التاريخ الإنساني الطويل لابدّ وأن تكون له آثاره الكونية سلباً أو إيجاباً.

إنّني أُسجّل هذه السطور لمن يصدّق أو لا يصدّق لأنني لا أُريد أن أُقرّر ظاهرة علمية بقدر ما أُسجّل واحدة من مشاهداتي التي ظلّت محفورة في ذاكرتي إلى اليوم.

كنت حينها في ضواحي «كركوك» شمال العراق، وكان الوقت عصراً وقد بدا الجوّ مشحوناً.. متوتراً.. وشيئاً فشيئاً سادت صفرة

كثيفة، اشتدّت لتتحوّل إلى حمرة مخيفة، والغبار يغمر الأرض دون رياح حتىٰ تعذرت الرؤية لأبعد من أربعة أمتار، وساد الوجوم والخوف الوجوه، وأدّى بعضهم صلاة الآيات، وتساءل رجل بصوت يشوبه الحزن: أتراهم قتلوا سيّداً؟!

ولقد ظلّ هذا التساؤل أيّاماً حتىٰ ظهرت الحقيقة.

نعم لقد قتلوا سيّداً وحصورا.

لقد بايع سكّان المدينة بعد الاجتياح على أنّهم عبيد ليزيد، وكان ذلك نتيجة لمصرع الحسين (عليه السلام) الذي كان يمثّل كرامة الإسلام والإنسان.

واستسلم العراقيون إلّا قليل لإرادة صدّام، وقد حدث ذلك بعد مصرع الصدر، وقد كان يمثّل كرامة الشعب العراقي بأسره.

سوف تمرّ الأيّام؛ ويجري نهر الزمن. لقد غاب الصدر، وسوف يموت جلّاده، وستنطوي صفحات التاريخ، الواحدة تلو الأُخرىٰ، وسيأتي من يقرأ عن رجلٍ قال: لا، في زمن الذلّ، فدفع حياته ثمناً لذلك.

ستكتب قصّة فريدة من قصص التمرّد لرجل نهض لوحده يقاتل نظاماً مدجّجاً بأسلحة الدمار والموت، ولم ينهض معه سوىٰ امرأة اسمها آمنة.

سوف يبقى الحديث عن ملحمة الصدر مبتوراً إذا لم يتكامل مع شخصية بنت الهدىٰ التي وقفت إلىٰ جانب أخـيها حـتى اللـحظات الأخيرة من عمره ومن عمرها، وهي التي قالت مرّة:

إنّ حياتي من حياة أخي، وسوف تنتهي مع حياته.

وللمرء أن يتصوّر تلك الليلة التي رحل فيها الأب تاركاً صغيرين ولداً وبنتاً، ولم يكن للأُسرة في تلك الليلة الموحشة شيئاً يتعشّون به، وربّما كانت الطفلة التي فتحت عينيها في نفس العام الذي أغمض فيه أبوها عينيه تبحث عن دفء مفقود، ولعلّ «محمّد باقر» الذي كشفت الأيام عن قلب يموج بالعاطفة والحبّ لكلّ الناس قد ضمّ إليه شقيقته يحنو عليها بعد قسوة الدهر.

ومنذ تلك اللحظة لم تفارق آمنة أخاها في رحلة طويلة امتدّت لتناهز نصف قرن من الزمن.

ولقد ظلّ ذكر الصدر مقروناً ببنت الهدىٰ فـي الحـياة والثـورة والمقاومة وفي ذمّة الخلود.

ولا ننسى أن نشير هنا إلى أن الإمام الشهيد قد اقترن بابنة عمّه،

وهي شقيقة الإمام موسى الصدر[1] وله منها بنات وولد اسمه جعفر.

ومن يريد أن يتحدّث أو يؤرّخ لبنت الهدىٰ فهي خلاصة لحياة أخيها الكبير في الشخصية والفكرة وفي تلك الروح العظيمة إلّا في ما يميّز المرأة عن الرجل يوم خلق الله حوّاء.

---

(١) ولد موسى الصدر في مدينة قم عام ١٩٢٨ وتلقّىٰ علومه الابتدائية والثانوية في مدارسها الحديثة، كما تلقىٰ دراسات دينية في الفقه والمنطق، وتابع دراسته الجامعية في جامعة طهران. وكان أوّل رجل دين يدخل حرم الجامعة. وتخرّج من كليّة الحقوق، وأصبح استاذاً في الفقه والمنطق في الحوزة الدينية بقم، وأسّس خلال تلك الفترة مجلّة «مكتب إسلام» وأدارها سنوات عديدة، وأصبحت أكبر مجلّة دينية في إيران.
هاجر إلى النجف وأقام فيها أربعة أعوام ودرس على أيدي مراجعها الكبار؛ وفي طليعتهم السيّد محسن الحكيم والشيخ محمّد رضا آل ياسين والسيّد الخوئي.
وفي عام ١٩٥٩م انتخب رئيساً للمجلس الشيعي الأعلىٰ في لبنان.
وتلا ذلك إعلانه بأنّه يتحدّث باسم المحرومين من كلّ الطوائف اللبنانية.
ولعلّ الإمام موسى الصدر أوّل عالم ديني يدخل الميدان السياسي بهذه الكثافة من التحرّك.
وكان من الطبيعي أن يثير ذلك حقد وغضب الآخرين، وسرعان ما تحوّل هذا إلى دسائس ومؤامرات واتهامات تناولت كلّ شيء في حياته حتىٰ مسلكه الشخصي.
وكان لشخصيته المحبوبة ودماثة أخلاقه وبساطته الأثر العميق في مشاريعه، حتى يمكن القول أنّ وجوده كان يمثّل عصراً جديداً للجنوب اللبناني بكلّ طوائفه.
وقد كانت له علاقات طيّبة محليّاً وإقليمياً باستثناء علاقته مع إسرائيل وبعث العراق التي اتّصفت بالتوتر الشديد، وكانت أوّل أزمة حدثت بين الإمام وحكومة البعث بعد إقدام نظام بغداد على إعدام «البصري» ورفاقه عام ١٩٧٤ بعد محاكمة صورية، وكان العراق قد صعّد من ممارساته التخريبية في لبنان ممّا حدا بالصدر إلى مواجهتهم، وهو ما فجّر أزمة أخرىٰ عنيفة حتى اختفائه في ظروف غامضة عام ١٩٧٨م. ولقد حامت الشبهات حول هذه الدولة أو تلك وهذا النظام أو ذاك، ولكن المرء لا يمكنه أن يغفل بعث العراق دون أن يوجّه له أصابع الاتهام، والزمن كفيل بكشف الحقائق، فالقمر لا يبقىٰ خلف الغيوم إلى الأبد.

وإنّك حينما تقف أمام هذه السيّدة فإنّك تقف أمام مثال للـمرأة الذي نحته الإسلام ونفخ فيه من روحه.

وإذا كان الصـدر العـظيم قـد قـارع الفكـر الإلحـادي فـلسفياً واقتصادياً ورفع راية الانتصار الإسلامي في الميدانين معاً، فإنّ بنت الهدىٰ راحت تضع لمسات المرأة السيّدة من أجـل مـيلاد المـجتمع المنشود.

ومن أجل هذا راحت تكتب قصصها الفريدة في فترة حسّـاسة من تاريخ العراق. وإذا كانت هذه القصص لا تمتّ بصلة ما إلى الواقع، فإنّها لتعبّر عن الحقيقة التي يراد لها التغييب والموت.

ويشهد الإقبال الهائل لاقتناء تلك القصص علىٰ ظمأ شديد لأُمّة تبحث عن هويتها... عن معادلات اجتماعية بديلة. ولم يكن القرّاء ليلتفتون في تلك الحقبة إلى الجانب الفني بقدر ما كانوا يبحثون عن مجتمع ضائع أو عن هوية مفقودة.

ولسنا هنا في صدد نقد أو تقييم أدبي لتراث بنت الهدىٰ، لأنّـه يبقىٰ في مجال الترف الفكري، بينما كانت الشهيدة تقاتل في الخط الأوّل من جبهة الصراع الفكري المحتدم آنذاك.

وهي ليست شهيدة فحسب، بل وشاهدة أيضاً. ولعلّها الوحيدة التي وعت مبكّراً مخاطر الغزو الثقافي الذي استهدف جبهة حسّاسة

ومصيرية، وهي المرأة العراقية.

ومن أراد أن يتصوّر الواقع النفسي والاجتماعي، والمعادلات السائدة وما كانت تهدف إليه بنت الهدىٰ فما عليه إلّا أن يطالع كتبها القصصية تلك بدءاً من: الخالة الضائعة ـ الفضيلة تنتصر ـ امرأتان ورجل ـ صراع من واقع الحياة ـ ليتني كنتُ أعلم ـ الباحثة عن الحقيقة وحتىٰ كتابها ذكريات علىٰ تلال مكّة، وغيرها.

وهي في قصصها تحاول هزيمة المجتمع السائد فكرياً عبر أبطالها تمهيداً لولادة المجتمع المنشود.

ان المرء ليقف مشدوهاً أمام سيّدة نسيت ذاتها تماماً؛ أو قل انصهرت في كلمة الله حتى لم تعد سوى المثال الذي أراده الإسلام للمرأة، وكأنّ أمّها يوم ولدتها قالت: ربِّ إني نذرتُ لك ما في بطني محرّراً فتقبّل مني انّك أنت السميع العليم فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسن وأنبتها نباتاً حسنا.

وأوّل ما يلفت الأنظار خلوّ حياتها من رجل، لكأنّها نظرت في طريقها الشائك فلم تجد رجلاً يقف إلىٰ جانبها، فمضت وحيدة لا تلوي علىٰ شيء.

وكان الله هو حبّها الأزلي الوحيد.. و «ماالدنيا إلّا ساعة شوق إلىٰ لقائك، وما الحياة إلّا ممر إلىٰ فنائك، وما العمر إلّا لحظات كفاح

من أجلك وفي سبيلك، فاجعل حياتي يـاربِّ كـلمة رضـا واجـعل روحي يا سيدي خفقة أمل ورجاء»[1].

لم يكن في حياتها رجل ولم تكن تصلح لرجل لا لشيء إلّا لأنّ الاستغراق مع الله غالب عليها[2].

وها أنا أعلن تهيبي عن ولوج هذا المحراب المقدّس في عـالم رحب تضيع فيه الدنيا وتتلاشىٰ.. عالم مليء بالشموس والأقـمار.. عالم يزخر بالنجوم.

وقبل الوداع أُردد ـ ودموعي تنهال كمطر حزين ـ كلماتها وهي تخطو باتجاه الشهادة.. ميراث الأنبياء وسيّدات النساء:

أنـــا كـنتُ أعـلم أنّ درب	الحـــق بـالأشواكِ حـافل
خـالٍ مــن الريـحان ينشر	عـــطره بـــين الجـــداول
لكنني أقـدمت أقـفو السير	فـــــي خـــطْو الأوائـــل
فـــلطالما كــــان المـجاهد	مـــفرداً بـــين الجـــحافل
ولطـــــــالما نــــصر الإله	جـــنوده وهـــم القـــلائل
فــالحقّ يـخلد فـي الوجـود	وكــــلّ مـــا يـعدوه زائـــل
سأظل أشدو باسم إسلامي	وأنكـــــــر كـــلّ بـــاطل

(١) ليتني كنتُ أعلم.

(٢) كلمة قالها الحسين (عليه السلام) يوم خطبت ابنته سكينة.

قسَماً وان مُلئ الطريق ... بما يعيق السير قدما
قسماً وإن جهد الزمان ... لكي يثبّط فيَّ عزما
أو حاول الدهر الخؤون ... بأن يريش إليّ سهما
وتفاعلت شتى الظروف ... تكيل آلاماً وهَمّا
فتراكمت سحب الهموم ... بأفق فكري فادلهمّا
لن أنثني عمّا أروم ... وإن غدت قدماي تدمى
كلا، ولن أدع الجهاد ... فغايتي أعلى وأسمىٰ

* * *

إسلامنا أنت الحبيب ... وكلّ صعب فيك سهل
ولأجل دعوتك العزيزة ... علقم الأيام يحلو
لم يعل شيء فوق اسمك ... في الدنا، فالحقّ يعلو
وتطبق الدنيا مبادئك ... العظيمة وهي عدل
وسينصر الرحمن جند ... الحقّ ما ساروا وحلوا
وأظلّ باسمك دائماً ... أشدو فلا ألهو وأسلو

وإذا كان لإعدام «الإمام الصدر» ما يبرّره في موازين «البعث» فإن إعدام «بنت الهدىٰ» سيبقىٰ جريمة هذا العصر، وانتهاكاً صارخاً لكلّ الشرائع البشرية على الإطلاق، وإنّ مصرعها علىٰ هذا النحو المؤسف يعتبر إدانة لهذا العصر الدنيء.

مرثية

خُطاك أم ملاحمُ الزمنْ؟

وقلبُك الكبيرُ، أم عُصارة المِحنْ؟

وحرفُك النديّ في مسيرةِ الصراعْ،

ما تاه في دَوّامةِ الضَّياعْ.

يا راسِماً في الدرب ألفَ لا... ولمْ... وَلَنْ.

ويا غريباً لفَّ في رِحلتِهِ الشِّراعْ،

وَوَدَّعَ الأحباب والوطنْ.

***

ما زال صوتك المدوّي يملأ السماءْ،

مازال فيه الأَملُ المنشودُ والرجاءْ.

ما زال في كلِّ فمٍ دُعاءْ،

ما زال في عينيكَ لونُ الحزن والبكاءْ،

مازال صوت منكَ كالنشيج

يَضِجُّ في أوديةِ (العراق)... والشّطآنِ... والخليجْ.

أمسِ علىٰ قبرِكَ قد طافَ بيَ الخيالْ.

كأنَّ روحَ (الصدر)، في شِفاهِهِ سُؤالْ:
من ذاك؟ وَٱنشقّتْ له الرمالْ

***

ولاح في وجهكَ لون الخُلدِ من بعيدْ
مَرْحىٰ! وَضَمَّكَ اشتياق الأُمّ للوليدْ
كأنما (البصريّ) أرخىٰ اليوم مقلتيهْ:
يا فرحةَ اللِّقاءِ، واحتواك في يديهْ.
ألا سمعتَ الناعيَ الكبيرَ يوم قالْ:
ما أعظم البكاءَ في مواكبِ الرجالْ؟!

***

ما مِتَّ. أنتَ اليومَ في كلِّ فؤادٍ نبضْ.
أنتَ، وإن ودّعتَ هذي الأرضْ،
مازلتَ في القلوبِ والعُيونْ.
وأنت لن تمحوك من أرواحِنا السنونْ.
وأنت رغم صَرعةِ المَنونْ،
باقٍ إلى أن يسقطَ الوَثَنْ.
يا واهباً من روحه الثَّمَنْ،
بِلا... وَلَمْ... وَلَنْ

وجّه الإمام الصدر ثلاث نداءات إلى الشعب العراقي؛ ولم تصل إلى آذان الأُمّة إلّا بعد استشهاده.

وعندما يصغي المرء إلى كلمات الإمام وهي تنساب حزينة معبّرة فإنّه لابدّ وان يدرك انّها لا تخاطب الجيل الحاضر بقدر ما هي موجَّهة إلىٰ ضمير الأجيال القادمة.

فالكلمات العميقة والأفكار العظيمة المترعة بالعاطفة والحزن السماوي لرجل علىٰ وشك الرحيل تعكس آخر محاولات هذا العظيم لهزّ الضمير المثقل بالخوف، وبعث الإرادة في أوصال أُمّة مذعورة.

وها أنا أفرد لهذه النداءات الأوراق الأخيرة، لأنّها وثائق ثورة فريدة في التاريخ، كما انّها ما تزال تشتعل تمرّداً، وما تزال تتوهّج في ضمير الجيل جذوراً خالدة ستؤتي أُكلها ولو بعد حين.

باقر الصدر منّا سلاما أي باغٍ سقاك الحِماما

أنت أيقظتنا كيف تغفو أنت أقسمت أن لن تناما

كيف تنأىٰ بعيداً ولمّا يبلغ المؤمنون المراما

قد فقدناك زعيماً لا يجارىٰ فبكيناك دماً دمعاً سجاما

غبت عنّا سريعاً ولمّا يطرد الثائرون الظلاما

يا شهيداً قام فرداً ينتضي للطغاة حساما

أنت كالسبط حسين قد أبيت الحياة مضاما

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيُّها الشعب العراقي المسلم!

إنّي أُخاطبك ـ أيّها الشّعب الحرّ الأبي الكريم ـ وأنا أشدُّ إيماناً بكَ، وبروحك الكبيرة، بتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائكَ البررة من مشاعر الحبّ والولاء والبنوّة للمرجعيّة، إذ تدفّقوا إلى أبيهم يؤكّدون ولاءَهم للإسلام، بنفوس ملؤها الغيرة والحميّة والتّقوىٰ، يطلبون منّي أنْ أَظَلّ إلىٰ جانبهم أُواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب، لأنّها آلامي.

وإني أودّ أنْ أُؤكّد لكَ ـ ياشعب آبائي وأجدادي ـ انّي معَكَ وفي أعماقكَ، ولن أتخلّىٰ عنكَ في محنتك وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك!

وأودّ أنْ أُؤكد للمسؤولين: أنَّ هذا الكبت الذي فُرض بقوّة الحديد والنّار على الشعب العراقيّ، فحرمَه من أبسط حقوقه وحرّياته في ممارسة شعائره الدّينية، لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أنْ يعالج دائماً بالقوّة والقمع.

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً لبقي الفراعنة والجبابرة!

أسقطوا الأذان من الإذاعة فصبرنا! وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا! وطوّقوا شعائر الإمام الحسين ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا! وحاصروا المساجد وملأوها أمناً وعيوناً فصبرنا! وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا! وقالوا: إنّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا! ولكن إلىٰ متىٰ؟! إلى متىٰ تستمرّ فترة الانتقال؟! إذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقيّ طريقه؛ فأيّ فترة تنتظرون

لذلك؟!

وإذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم ـ أيُّها المسؤولون ـ إقناع الناس بالانتماء إلىٰ حزبكم إلّا عن طريق الإكراه، فماذا تأملون؟!

وإذا كانت السّلطة تريد أنْ تعرف الوجه الحقيقي للشّعب العراقي فلتجمّد أجهزتها القمعية أُسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبّروا خلال أُسبوع عمّا يريدون.

إنّي أُطالب باسمكم جميعاً؛ أُطالب بإطلاق حريّة الشّعائر الدينيّة، وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام).

وأُطالب باسمكم جميعاً: بإعادة الأذان وصلاة الجمعة، والشعائر الإسلامية إلى الإذاعة.

وأُطالب باسمكم جميعاً: بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كلّ المستويات.

وأُطالب باسم كرامة الإنسان: بالإفراج عن

المعتقلين بصورة تعسّفية، وإيقاف الإعتقال الكيفيّ الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً؛ أُطالب باسمكم جميعاً، وباسم القيم التي تمثلونها: بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقية حقّه في تسيير شؤون البلاد، وذلكَ عن طريق إجـراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثّل الأُمّة تمثيلاً صادقاً.

وإنّي أعلم أنّ هذا الطلبات سوف تُكلّفني غـالياً، وقد تكلّفني حياتي، ولكن هذه الطلبات ليست طـلب فرد ليموت بموته وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر أُمّـة وإرادة أُمّة، ولا يمكن أنْ تموت أُمّة تعيش في أعماقها روحُ محمّد وعليّ، والصفوة من آل محمّد وأصحابه.

وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات، فإنّي أدعو أبناء الشعب العراقي الأبيّ إلى المواصلة في حمل هذه الطلبات، مهما كلّفه ذلك من ثمن؛ لأنّ هذا دفاع عـن النفس وعن الكرامة، وعن الإسلام رسالة الله الخالدة، والله وليّ التوفيق.

٢٠ / رجب / ١٣٩٩

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة على محمّد وعلى آله وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقيّ العزيز!.

أيُّها الشّعب العظيم!.

إنّي أُخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية، بكلّ فئاتك وطوائفك: بعربك وأكرادك، بسنّتك وشيعتك، لأنّ المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر، ولا قوميّة دون أُخرىٰ، وكما أنّ المحنة هي محنة كلّ الشّعب العراقيّ، فيجب أن يكون الموقف الجهاديّ، والرّد البطوليّ، والتلاحم النضالي، هو واقع كلّ الشّعب العراقيّ.

وإنّي منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأُمّة، بذلت هذا الوجود من أجل الشّيعي والسّني على

السّواء، ومن أجل العربيّ والكرديّ على السواء، حيث دافعت عن الرّسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمهم جميعاً، ولم أعش بفكري وكياني إلّا للإسلام: طريق الخلاص وهدف الجميع.

فأنا معكَ يا أخي وولدي السّني! بقدر ما أنا معكَ يا أخي وولدي الشيعي! أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام؛ وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التّسلّط والذلّ والاضطهاد.

إنّ الطاغوت وأولياءه، يحاولون أنْ يوحوا إلى أبنائنا البررة من السّنة: أنَّ المسألة مسألة شيعة وسنّة، ليفصلوا السّنة عن معركتهم الحقيقية ضدّ العدوّ المشترك.

وأُريد أن أقولها لكم ـ يا أبناء عليّ والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: انّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السّني.

إنّ الحكم السنّيّ الذي مثّله الخلفاء الراشدون،

والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل عليّ السيف للدفاع عنه، إذْ حارب جندياً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأوّل (أبي بكر)، وكلُّنا نحارب عن راية الإسلام، وتحت راية الإسلام، مهما كان لونها المذهبيّ.

إنّ الحكم السّني الّذي يحمل راية الإسلام قد أفتىٰ علماء الشّيعة قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجْله، وخرج مئاتُ الآلاف من الشيعة وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ على راية الإسلام، ومن أجل حماية الحكم السنّيّ الذي كان يقوم على أساس الإسلام.

إنّ الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنيّاً، وإن كانت الفئة المتسلّطة تنتسب تأريخيّاً إلى التسنّن.

إنّ الحكم السّنّي لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنّيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الّذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كلّ تصرّفاتهم، فهم ينتهكون حرمة الإسلام وحرمة عليّ

وعمر معاً في كلّ يوم، وفي كلّ خطوة من خطواتهم الإجرامية.

ألا ترون ـ يا أولادي وإخواني ـ أنّهم أسقطوا الشعائر الدينية الّتي دافع عنها عليّ وعمر معاً؟!

ألا ترون أنّهم ملأوا البلاد بالخمور، وحقول الخنازير، وكلّ وسائل المجون والفساد الّتي حاربها عليّ وعمر معاً؟!

ألا ترون أنّهم يمارسون أشدّ ألوان الظلم والطغيان تجاه كلّ فئات الشعب؟! ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب، وتفنّناً في امتهان كرامته والانفصال عنه، والا عتصام ضدّه في مقاصرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كان عليّ وعمر يعيشان مع النّاس وللنّاس وفي وسط الناس ومع آلامهم وآمالهم.

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عشائرياً، يسبغون عليه طابع الحزب زوراً وبهتاناً؟! وسدّ هؤلاء أبواب التقدّم أمام كلّ جماهير الشعب سوى

أولئك الذين رضوا لأنفسهم بـالذلّ والخـنوع، وبـاعوا كرامتهم وتحوّلوا إلى عبيد أذِلّاء.

إنّ هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتىٰ كرامة حزب البعث العربيّ الاشتراكي، حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة تـطلب الانـضمام إليـها والانتساب لها بالقوّة والإكراه، وإلّا فأيّ حزب حقيقيّ يحترم نـفسه ـ فـي العـالم ـ يُـفرض الانـتساب إليـه بالقوّة؟! إنّهم أحسّوا بالخوف حتّىٰ من الحزب العربيّ الاشتراكي نفسه الذي يدّعون تمثيله. أحسوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقياً له قواعده التي تـبنيه، ولهـذا أرادوا أن يهدموا قواعده، لتحويله إلى تجمع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب ليفقد أيّ مضمون حقيقيّ له.

يا إخواني وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة.. من أبـناء بـغداد وكـربلاء والنـجف.. مـن أبـناء سـامراء والكاظميّة.. من أبناء العمارة والكـوت والسـليمانية.. من أبناء العراق في كلّ مكان، إنّي أُعاهدكم بأنّي لكم

جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، وأنّكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل.. فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً ـ على اختلاف قوميّاتهم ومذاهبهم ـ بأنّهم إخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلاميّة العليا، المستمدّة من رسالتنا الإسلامية وفجر تاريخنا العظيم.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف ـ محمد باقر الصدر.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسـلام عـلى سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقيّ العزيز!

يا جماهير العراق المسلمة التـي غـضبت لديـنها وكرامتها، ولحريتها وعزّتها، ولكلّ ما آمنت به من قيم ومثل! أيُّها الشعب العظيم!

إنّكَ تتعرّض اليوم لمحنة هائلة، على يد السفّاكين والجزّاريـن، الذيـن هـالهم غـضب الشـعب وتـململ الجماهير، بعد أن قيّدوها بسلاسل من الحـديد، ومـن الرّعب والإرهاب، وخيّل للسّفاكين أنّهم بذلكَ انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزّة والكرامة، وجرّدوها مـن صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمّدها العظيم، لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبـيّ إلى دُمى وآلات، يحرّكونها كيف يشاؤون، ويـزقّونها

ولاء (عفلق) وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار، بدلاً عن ولاء محمّد وعليّ (صلوات الله عليهما).

ولكنّ الجماهير دائماً هي أقوىٰ من الطغاة مهما تفرعن الطغاة، وقد تصبر ولكنّها لا تستسلم، وهكذا فوجئ الطّغاة بأن الشّعب لا يزال ينبض بالحياة، ولا تزال لديه القدرة على أن يقول كلمته! وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة علىٰ عشرات الآلاف من المؤمنين والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن والاعتقال والتعذيب والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون، الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب!.

وإنّي في الوقت الذي أُدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بكَ يا شعبي! يا شعب آبائي وأجدادي ـ أؤمن بأن استشهاد هؤلاء العلماء، واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين وأبنائك الغيارىٰ تحت سياط العفالقة، لن

يزيدك إلّا صموداً وتصميماً على المضيّ في هذا الطريق، حتى الشهادة أو النصر!.

وأنا أعلن لكم ـ يا أبنائي ـ أنّي صممتُ على الشهادة! ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه مني، وإنّ أبواب الجنّة قد فُتحت لتستقبل قوافل الشهداء؛ حتىٰ يكتب الله لكم النصر! وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): إنّها حسنة لا تضرّ معها سيئة. والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت.

فعلىٰ كلّ مسلم في العراق، وعلىٰ كلّ عراقي في خارج العراق: أن يعمل كلّ ما بوسعه ـ ولو كلّفه ذلكَ حياته ـ من أجل إدامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللا إنسانية، وتوفير حكم صالح فذٍّ شريف، يقوم على أساس الإسلام. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٠ / شعبان

محمد باقر الصدر.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

«تأكّد وببالغ الأسف وحسبما أفادته تقارير وزارة الخارجية ومصادر أُخرىٰ... أنّ السيّد محمّد باقر الصّدر وشقيقته المكرّمة المظلومة والتي كانت من أساتذة العلم والأخلاق والأدب قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثي المنحطّ وبصورة فجيعة».

«الشهادة تراث ناله أمثال هؤلاء العظماء من أوليائهم، والجريمة تراث ناله هؤلاء جناة التاريخ من أسلافهم».

«ولا عجب لشهادة هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمرهم في الجهاد، على أيدي جُناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء، وإنّما العجب هو أن يموت المجاهدون في الفراش دون أن تتلطّخ أيدي الجناة بدمائهم الطاهرة».

«وها أنا أعلن الحداد العام ثلاثة أيّام وأُعلن غداً الخميس عطلة عامّة في البلاد».

فقرات من بيان الإمام الخمينيبعد مصرع الشهيد محمّد باقر الصّدر

الفهرس

في البدء ٩
الجذور ١٣
الميلاد ١٤
الخطوات الأولىٰ ١٥
الهجرة الىٰ النجف ٢١
سنوات العطاء ٢٣
تأمّلات في سهل صفين ٢٩
محطّات أُخرىٰ في العطاء ٣٢
لا تلعن الظلام؛ اشعل شمعة ٤٥
ومشروع آخر ٥٠
لقاء مع محمد باقر الصدر ٥١
المواجهة الكبرىٰ ٦٤
الحسين يولد من جديد ٦٨
اشتعالات قبل الغروب ٧١
الشرارة الأُولىٰ ٧٤
الوفود ٧٦
لحظات الغروب ٧٧
كلمات منقوعة بالنار ٧٩
هاجس عاشوراء ٨٥
الأيّام ٨٩
رسالة ٩٠
لاءات في زمن الذلّ ٩٢
جريمة في بغداد ٩٦
رؤيا ٩٦
زينب العصر ١٠٢
مرثية ١٠٨
بيانات الثورة ١١١